جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالشرقية
قسم الأدب والنقد



من التاريخ الأدبيّ (٥)

# دراساتٌ في النثرِ العباسيِّ

## القسم الثاني

الدكتور
حسام محمد علم
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
المساعد بالكلية

الطبعة الثالثة
١٤٢٧-٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ



(البقرة:٣٢)

## أوتار الحزن

يا عمراً ليس تعوضه ..
... كلُّ الأعمارْ
يا نبضنا يسري في دمنا ..
.. يا طهراً يغسلُ بالمسكِ ..
.. كلَّ الأوزارْ
إنْ رُمتُ رثاءك يا نهراً ..
يجري بالحبِّ بوادينا ..
.. لن يكفيَ سيلُ الأشعارْ
فلأنتِ بأعيننا .. مقَلٌ
يا أشهى من شهدِ الجنةِ ..
يا كوثرَ هذي الأنهارْ
يا كأسَ حنانٍ أسكرَنا ..
بحديثٍ ليس يدانيهِ ...
في الجرسِ رنينُ الأوتارْ
يا قدراً تحسدُنا عليه
.. في الدنيا جميعُ الأقدارْ

••••

قد جاء الصبحُ فزلزلنا
برحيلك عنا يا وطناً ..
.. تتعلّقه كلُّ الأقطارْ
وتجيءُ إليهِ على وجَلٍ
أفئدةُ جميعِ الأبرارْ
فيا ويحَ دموعي إنْ جفّتْ
.. لو غاضَ الدمعُ وودّعهُ ..
.. مـوزُ الإعصارْ ..
يا ويحَ لسيلٍ ما شقّتْ ..
لدموعي فيه ...
قنواتُ حوارْ

يا أمّاً ليس يضارعها ...
في البذلِ ألوفُ الأخيارْ
يا فيضَ نماءٍ حولَنا
لرياضٍ من بعدِ قفارْ
يا أمّاً من عصرِ خديجةَ ..
يا صبراً ينجبُ عمّارْ ..

••••

كمْ كنتِ الأمَّ .. وكنتِ الأختَ
وكنتِ .... وكنتِ ....
وكنتِ الأهلَ .. وكنتِ الدارْ
أسلمتِ الروحَ لباريها ..
وركبتِ الموجَ لأخراكِ
بسفينِ البرِّ توجهُهُ ...
... أشرعةُ نثارْ
فاجأتِ الدنيا ورحلتِ من غيرِ وداعٍ
فكان الشوقَ إلى الأخرى ...
أنساكِ وداعي يا أمّتا ...
زُفّتْ لجنانِ الأطهارْ

••••

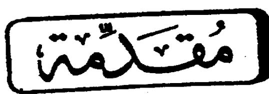
يا أمّي قاموس حديثي ...
عافته أشهى الكلماتْ
يا أمّي معجم ألفاظي
يتّمهُ في الصبحِ رحيلُكِ
يا فيضَ حياءٍ .. ووقارْ
ما زال حديثكِ في سمعي
يوصيني:
"رفقاً بالجارْ .."
يا ولدي: لا تضربْ ابناً .. أو بنتاً ..
لا تقسُ بالله عليكَ ..

ما خلقَ اللهُ بأضلعنا ..
.. مضغاً أحجارْ ..!!
كمْ عانتْ أمُّكَ من ظلمٍ
يا ولدي ..
كم لاقت أمكَ حرماناً من بعدِ اليُتمِ ..
كم ذاقتْ من كأسٍ مرارْ
يا ابني: كنْ ظهرَ أخيكَ ..
كنْ جسرَ حنانٍ لحسامْ ..
ورسولَ مودّةٍ لمحمدْ ..
ولأختكَ كنْ فيضَ سخاءٍ ...
... كنْ كالأمطارْ ..
يا خالدْ: كنْ عونَ أبيكَ
يا ولدي: كنْ ابناً بارْ
فالدنيا قنطرةُ مرورٍ
لعوالمَ مُلئتْ أسرارْ
فاحزمْ لهِ حقائبَكَ
وتوضأ بالزهدِ .. وسلّمْ
وتهيّأ لرحيلٍ آتٍ ..
وتعلّمْ كيف الأبحارْ ...

••••

ما زالَ حديثُكَ في أذني ..
يُسمعني .. حُلوَ الأخبارْ
وبعيني رسمُ أمانيكَ
وبقلبي تستعرُ النارْ
فلعلَّ الخالقَ يجمعنا
للقاءٍ عذب الأطوارْ

شعر م. جيولوجي
خالد محمد علم



# مقدمة

الحمدُ لله، الرحيمُ الرحمنُ، خلقَ الإنسانَ، علمهُ البيانَ، وأضاء أبصـارَه وبصـائرَه بنورِ القرآنِ، والصلاةُ والسلامُ على من لا نبيَّ بعده، إمامُ المتقين، وأبلغُ الناطقين، وأفصـحُ المتكلمين الذي شرفه ربّنا بالقرآن الكريمِ، وعلى آله وصحبه، ومَـنْ تبعـه بإحسـانٍ إلى يومِ الدين.

مهما يكنْ من أمرٍ بعدُ فإن الحديثَ عن النثرِ العباسيّ ذاك القبس المتوهج يعدُّ حديثاً شائكاً وشائقاً معاً .. فهو شائكٌ؛ لأننا – أولاً – نحاورُ ونشاورُ أيديااليزماً (أي مثالياً) مفرطاً في العطاء والإمتاع على مدى تاريخِ آدابنا جملة وتفصيلاً .. لقد نشط وازدهـر ازدهـاراً عظيماً عندما تهيأت له مقوماتُ نجاحه التي لا شيةَ فيها بيد أنها ارتوت من ينابيع الثقافـات على شتى ألوانها؛ لذا فلقد جاء حضوره واسعاً وفاعلاً مثلما كان رسوخه عميقاً ومتجذراً.
**ثانياً**: أن رحلته الطويلةَ جاءت مثقلةً بعناقيدها وثمارها؛ لإنها نتاجُ تلاقحِ كثيرٍ من الثقافاتِ والعلوم والمعارف.

وهو شائقٌ؛ لأنه – أولاً – ليس باللحظات العابرةِ في حياة العرب فحسب بل كـان مثلاً لأعلى درجاتِ التوحدِ الروحيّ والفكريّ مع النفس التي اشتعل عندها مصبـاحُ الأدب فانطلق سحرُ وبريقُ حروفه متوهجاً، وقد استنبطها مـن ينـابيع صـدرِه، وسبحات خياله، ومعدن فكره.

**ثانياً**: لأنه أكثر الآداب إعراباً عن نفسه وعصره معاً إذ جاء سيرة صادقةً لقاسم كبير مـن حياة عرب الجزيرةِ فحمل – في محارة ذاته – جزءاً مهماً مـن تاريخهـا السياسـي والاجتماعي والأدبي بكل أبعاده وأسراره وتموجاته؛ ..

من هنا فلقد كان لزاماً علينا أن نتصدى لرصد تاريخِ نثره محاولة منا لرسم خارطة معرفية تحاكي – في خطوطها وأبعادها وألوانها – أصوله.

أما عن محتوى الدراسة فلقد جاءت في مقدمةٍ وثلاثة فصول - وقد ذُيِّلَ كلُّ فصلٍ بهوامشه ومصادره - كالتالي:

**ففي المقدمةِ وهي عن (حياة العباسيين)** فإنها جاءت بطاقةً معرفيةً للعصر وأحواله الاجتماعية والفكرية حيث قصدنا من وراء هذا أمرين:

**الأول:** معرفة الفترات أو العوامل التي نما فيها أدب العصر العباسي أو خبا وذلك بشكل يستدعي النظر، ويدعو للبحث والتأمل.

**الآخر:** أن هذه الدراسةَ تسهمُ بالنصيبِ الأكبرِ في استضاءةِ جوانبَ، أو أبعادٍ مهمةٍ في حياة الأدباء، وبالتالي تجئ دالةً وكاشفةً وراصدةً لكثيرٍ من الظواهرِ أو الاتجاهاتِ الفنيةِ.

هذا ولقد اتبعنا المقدمةَ بهوامشها ومصادرها التي جاءت موضحة في بعضٍ ومحققة في البعض الآخر لكل ما سبق.

**الفصل الأول وعنوانه (النثر العباسي بين التوصيف والتعريف)** وفيه استطاعت الدراسةُ فيه أن تحصرَ - في إحاطةٍ وشمولٍ، الأسباب المباشرة وغير المباشرة لنهضة النثر العربي في العصر العباسي، كما رصدت قدراً كبيراً من الخصائص الفنية للنثر بشكلٍ عامٍ.

**أما الثاني وعنوانه (فنون النثر العباسي في العصر الأول وأبرز أعلامه)** فقد عرضَ للونين شاعاً في هذا العصر وهما الأول: الخطابة حيثُ تحدث عن مفهومها وعوامل ازدهارها وأنواعها مع التمثيل لكل نوعٍ على حدة، وقد انتهى بعرضِ أطرافٍ لأهم سماتها.

**الآخر:** الكتابة الفنية وفيه تناولت الدراسةُ حديثاً مفصلاً عن أسبابِ ازدهارها وأنواعها بدءاً بالرسائل، ومروراً بالإنشاء المرسل، وانتهاءً بالتوقيعات، ثم انتهت بترجمةٍ مختصرةٍ لأهم أعلام العصر وهم: ابن المقفع وعمرو بن مسعدة والجاحظ وقد آثرنا أن نصطفيَ من كل طبقة واحداً.

وأمّا الثالث وعنوانه (فنون النثر في العصر العباسي الثاني وأبرز أعلامه وخصائصهم الفنية).

وفيه تتبع الفصلُ مسيرةَ اللونين السابقين وما صادفها من عواملَ أو مؤثراتٍ تتبعاً دقيقاً .. إذ جاء الحديث موزعين على محورين:

الأول: الخطابة حيث تحدثنا عن عوامل ضعف كلّ لونٍ فيها على حدة، ثم ذكرنا حديثاً سريعاً لبيئة الوعظ والوعاظ وخصوصاً المتصوفين ومفاهيمهم التي شكلت أصداء واسعة في المعتقد الديني.

الآخر: الكتابة الفنية حيث تتبعت الدراسة حديثاً مسهباً عن عوامل ازدهارها وأنواعها بدءاً بالرسائل، وانتهاءً بالمقامة حيث عرضت الدراسة لمفهومها، ونشأتها وتطورها، والفرق بينها وبين القصة، ثم انتقلت للحديث عن أسباب ظهورها وعناصر بنائها الفني وانتهت بعرضٍ لأوجه التشابه والاختلاف بين كلٍّ من بديع الزمان والحريري.

وفي نهاية الفصل اختارت الدراسة ثلاثة من أبرز أعلام هذا العصر وهم ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وقد قدمت بطاقةً معرفيةً لكلّ واحدٍ على حدة.

هذا ولا تزعم الدراسة أنها أحاطت بالموضوعِ درساً وبحثاً، لكنها لا تعدو أن تكون خارطةً استكشافيةً – لذلك العصر الذي أتيح لأصحابه – وخصوصاً أدباءه من أطايب الحياة ورغائب أو رغابة العيش وراحة البال – ما لم يتحْ لغيرهم، بحيث تجيء ممهدة لدراسة واعدة بإذن الله تعالى.

والله من وراء القصد وبالله التوفيق،،

دكتور/ حسام محمد علم

غزالة الزقازيق

التاسع من محرم سنة ١٤٢٥هـ



# مقدمة
# في حياة العباسيين

اتفق المؤرخون - مطلقاً بلا تقييد - على الدوافع الفعلية لقيام الدولة العباسية - وهي المتمثلة في نجاح الهاشميين من أبناء العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله (ﷺ)، وبفضل أنصار البيت النبوي من الخرسانيين[1]. ومن انضم إليهم في القضاء على الدولة الأموية، وقد تمت البيعة لأول الخلفاء العباسيين - أبي العباس بن عبدالمطلب الملقب بالسفاح بمسجد الكوفة - في ربيع الأول من عام ١٣٢ هـ بعدما حقق الانتصار الحاسم على الجيش الأموي الذي قاده مروان بن محمد الذي قُتل مطارداً بعد قليل من الهزيمة الساحقة، وبذلك بدأت الخلافة العباسية بعد أن بقي ملك بني أمية ألف شهر كاملة حتى أن الليلة التي تولى فيها أبو العباس الخلافة أعتبرت - بقول الروايات العباسية - ليلة القدر التي وردت في القرآن في قوله تعالى " **ليلة القدر خير من ألف شهر** " **سورة : القدر، آية ٥٢ " ففيها قامت الخلافة العباسية "**[2]. متخذة الكوفة أول عاصمة لها في أول الأمر باعتبارها أهم مراكز الدعوة لآل البيت "[3] ثم انتقلت منها إلى الحيرة مؤقتاً لما رأى زعمائها أن هوى الكوفة مع أبناء علي بن أبي طالب، ثم اختاروا الأنبار؛ لتكون عاصمة لدولتهم "[4] حيث انتقل إليها السفاح وسماها " الهاشمية "، وبها دُفن، وأقام فيها الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور تسع سنين، ثم قام ببناء بغداد، بعد الفتنة العلوية حيث كره السكن بجوار الكوفة وليكون العباسيون وسط أنصارهم.

مهما يكن من أمر فلقد كانت الدعوة العباسية تقوم على أساس الدعوة للرضا من آل محمد دون تحديد لشخصية الإمام الذي تدعو إليه .. من هنا استطاعوا أن يجذبوا إليهم الشيعة؛ فانضموا إلى العباسيين بعدما كانوا ثورة متصلة ضد الدولة الأموية سواء في العراق أم فيما بعده من الشرق حيث " كلف ذلك الأمويين طاقات هائلة، واستنزافاً في الأموال والرجال، فأضعف قوتهم، وزعزع كيان دولتهم، فقوض دعائمها، وأزال ملكها "[5].

على كل فلقد عاشت الدولةُ العباسيةُ مايقرُبُ من خمسة قرون .. ونظراً لطول هذه الفترة اتفقَ معظمُ مؤرخي الأدب على تقسيم حكم الخلافة - سياسياً - فترتين زمنيتين وقد فرّغا في صحن عصرين أدبيين أصطُلِحَ على تسمية الأول العصر العباسي الأول حيثُ يبدأُ من قيام الخلافةِ إلى عهد المأمونِ الذي توفي سنة ٢١٨ هـ والعصر الآخر يبدأ بخلافة المعتصم بالله إلى سقوط الخلافة سنة ٦٥٦ للهجرة .

ونتساءلُ عن الدافع الحقيقي لهذا التقسيم فسنجده يتلخصُ في اختلاف ملامح السياسية والاجتماعية والثقافية من عصر لآخر ، وهذا ما ستكشفُ عنه الصفحاتُ التاليةُ

**أولاً: الحياة السياسية:**

توطدت الخلافة العباسية التي صارت الخلافةَ الشرعيةَ للمسلمين بفضل عاملين

**الأول** : مهارة وإخلاص وتفاني الدعاة الذين جندهم العباسيون لتلك المهمة[٦] الصعبةِ.

**الآخر**: وعي وحنكة قادة الجيوشِ العباسيةِ الذين لاهَمَّ لهم سوى نصرة بني هاشم أمثال أبي مسلم الخرساني حتى صارت من كبريات الدول عندما استقل العباسيون بالمشرق ، وقد اجتمعوا على حب ؛ لكن شهرَ عسله لم يدم طويلاً حيث انقسموا شيعاً وأحزاباً .. " فالعلويون كانوا مؤيدين لعليّ بن أبي طالب عم الرسول (ﷺ) ؛ لكونهم أبناء الحسن ، وأولاد عمهم الحُسين الذين لم يتدخلوا في الحياة السياسية إلا قليلاً ، إذ اقتصروا في أعمالهم على الأمورِ الدينيةِ والقيامِ ببعضِ الأعمالِ التجاريةِ ، وأما العباسيون فهم منتمون إلى علي بن عبدالله بن عباس - عَمّ الرسول (ﷺ) ".

هذا ولم يسر الفريقان في طريقٍ واحدةٍ بل اختلفت آراؤهم ، وتباينت مذاهبهم واختلفت ميولهم ، وتغايرت طبائعهمُ على الرّغم من أنهم أبناءُ عمٍّ حيثُ تتطلبُ العمومةُ تسامحاً وتحاباً وتآخياً وتواحداً في الكلمة والصّف ولكنْ ذاك لم يكن ...!

على كلٍّ فلقد صارت بغدادُ عاصمةً لهم ، عندما قرر أبو جعفر المنصور تأسيس عاصمة جديدة " يتخذها العباسيون سكناً لهمْ ، ومعسكراً لجندهم ؛ لتبقى خالدةً على الدهور لذراريهم "[٨] ولعل بناء هذه العاصمة الجديدةِ جعل المنصورَ من كبارِ حكام

الدهور لذراريهم "[8] ولعل بناء هذه العاصمة الجديدة جعل المنصور من كبار حكام الإسلام الذين أنشأوا للإسلام عواصمَ الكبرى الخالدة [9] حتى أصبحت من أكبر مدن العالم الإسلامي ، وأفخمها بقصورها وبساتينها ومساجدها وقصورها.

أما عن نظام الحكم فيها : فقد جاء - كسابقتها - امتداداً وراثياً ، ولربما زادت في عموم السيادةِ والشرعيةِ والأحقيةِ اعتقاداً من المنصور بأن الخلافةَ ميراثٌ وحقٌ للعباسيين من النبي ﷺ،وأنها أبديةٌ فيهم إلى يومِ قيامِ الساعةِ بدعوة أنه لاتصح الخلافةُ إلا فيهم ، وما كان قبلهم من الخلفاء لم يكن شرعيّاً ؛ لذا فلقد قيل في أول خطبة عباسية " إن الخلافة لم تصح إلا لعلي ولأبي العباس ،ولا أدل على ذلك من أنه منذ نشأة الدولة أصبحت كلمةُ السنة وإحياء السنة تعني أن العباسين قد جاءوا بعد الأمويين الذين لم يكونوا من الصحابة ؛ أو من أهل النبي ﷺ للعودة إلى تقاليد النبوة "[10].

من هنا اتسمت الخلافةُ بالطابع الديني ولعل هذا ما جعلها تبوأ مكانة ساميةً في قلوب المسلمين ، وكان المنصور أول من عملَ على ربطِ الدين بالدولةِ . هذا ولايفهم من قولنا:أنهم ساروا على الطريقِ الصحيح الذي رسم أبعاده الإسلامُ ؛ لكنهم استخدموا سياسةَ القمع ، وسفكِ الدماءِ ، وذلك لتثبيت الملك ، وتوطيدِ دعائمه وضمانِ استمراريته للخلف من الأبناء ، وخصوصاً لدى بعض أعوان بني العباس من كبار رجال الدين الذين تكبدوا مشاق الدعوة لآل البيت النبوي حتى تُسب نجاحهم إليهم .. فرأينا بطشَ السفاح بأبي مسلم الخرساني ، وكذلك فعل الرشيد بوزراء دولته من البرامكة.

وأما عن نظام الدولة فلقد كان اعتماد العباسيين من الفرس في تأسيس دولتهم إيذاناً بغلبة العنصر الفارسي على نظم الحكم السياسي والإداري في هذه الدولة ؛ فراحوا يقلدون الدواوين الساسانية حتى قال الجاحظ " إن دولة بني أمية عربيةٌ ، ودولة بني العباس أعجمية [11]، وقد أُنشئَ ديوانُ الخاتم في العاصمة الذي جاءَ امتداداً لسياسة معاوية ، ولكن عمله يقومُ بإنفاذ أوامر الخليفة ، والختم عليها بتوقيعه وقد يختص بالنظر في المظالم ، ورقاع أصحاب الشكاوي وكان يسمونها باسم القصص " هذا بالإضافة إلى ديوان العزيز وهو ديوان حكومة الخليفة ، وكان يرأسه كبيرُ الوزراء في

عصر الخلفاء الأقوياء وكذلك ديوان الخراج وكان عملهُ جمعَ الضرائب وفرضها ، وتنظيمَ أمور الجباية وشؤونها ، وديوان الزمام قد اختص بالدخل والنفقات ، وديوان الحدبية الذي يشرفُ على الشؤون العسكرية، وديوان البريد والرسائل الذي يتولى تحريرَ الرسائلِ والمكاتبات الرسمية ، وكان رئيسه الذي يتولى خاتم الخليفة "[١٢].

بهذا أخذ الخلفاء العباسيون عن ملوك الفرس القدماء نظامَ الوزارة ، أما كلمة "وزير" فعربية الأصل وآية ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :" واجْعلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي "[١٣]ومعناها في الآية الكريمة المؤازر والمساعد . وقد استطاعت أسرةُ البرامكةِ الفارسيةِ أن تورث هذا المنصبَ لأبنائها حتى عصر الخليفة هارون الرشيد ، وفى عصر المأمون تقلدت أسرةٌ بني سهل " الفارسية أيضاً " هذا المنصبَ فوقع ما كان يُحاذرُ منه ..!

كذلك قلد العباسيون الساسانيين فى كثير من مظاهر الحكم حتى فى أزياء رجال الحاشية والقضاة والموظفين وطبقاتهم ولعل هذا دفع بالكثيرين من الفرس الى ترجمة الكتب التي تصور تلك النظمَ القديمة . وهذا هو عبدالله بن المقفع الفارسى الأصل ينقل إلى العربية طائفةً من الكتبِ والرسائلِ التي تتصلُ بالحكم الساساني مثل كتاب "ين نامه " أي كتاب النظم أو التقاليد وكتابي " الأدب الصغير ، و" الأدب الكبير " وقد شجع البرامكة وبنو سهل على هذه الترجماتِ حتى روي أنهم كانوا يعطون أجرَ الكتابِ المترجم وزنه ذهباً.فلله درُّه تشجيعاً ...!

لكن الحياةَ لم تهدأ للخلفاء العباسين فقد أخذ العلويون يدَّعون أنَّ العباسيين اغتصبوا الخلافةَ منهم ، وأنهم أحَقُّ بها حيثُ صادفَ هذا قبولاً لدى عدد كبيرٍ من ابناء الأمة ، وقد كان لهم شعراءُ يدافعون عنهم ، ويعبرون عن آرائهم منددين بقسوةِ وظلمِ العباسيين في معاملتهم ؛ لذا فلقد أحدثوا فتناً كثيرةً لعل أخطرها تلك التي قامَ بها أبو السرايا بن منصور الشيباني "[١٤].

كما قُتلَ كثيرٌ من الشيعة في تلك الفتن ، أما الخوارج فقد كسرت شوكتهُم فى عصر بني أمية ؛ لكثرةِ حروبهم مع الأمويين ، ولم يبقَ منهم إلا نفرٌ وقد هربوا في أنحاءَ

متفرقة بعُمان والجزيرة وخراسان، وجزء من شمالي أفريقيا ، وقد تصدى العباسيون لتلك الفلول فنجد المنصور يخرجُ على إبراهيمَ بن عبدالله أحدُ أحفادِ الحسن بن علي رضي الله عنهما فحاربه إبراهيمُ انتقاماً لقتله أخاه محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية،كما كثر الخارجون على الدولة كخروج أبي حاتم الخارجي في شمالي أفريقية في عهد المنصور ، وخروج عبدالسلام اليشكري بالجزيرة ، وخروج رافع بن الليث في خراسان في عهد الرشيد ، هذا بالإضافة إلى الثورات والحروب والانتفاضات والتكتلات وذلك مثل ثورتي **الزنج** (١٥) **والقرامطة**(١٦) إنه على الرغم مما سبق فإنه لم يكن لهم تأثيرٌ في الحياة الأدبية في العصر العباسي على نحو ما كان ملحوظاً في العصر الأموي .

هذا ولم تستقم الحياة للخلفاء وأبنائهم على نحو من الشفافية والتسامح حتى رأينا الغدر والقتل كانا السبيل إلى تولي السلطة ، والشواهدُ على ذلك كثيرة ؛ لذا فإن نظام ولاية العهد العباسي انحطّ إلى درك المسألة فرأينا تولى بعض صبيانهم الخلافة كالمقتدر الذي ولي وعمره ثلاثة عشر عاماً ، فكان الحصادُ المرُّ المتمثلُ في التحلل والانهيار التام .

إنه إن كانت هناك بعضُ حركات الزندقة المتمثلة في إظهار أهلها للإسلام ، وإبطانهم الكفر وبخاصة في أوائل عهد الخلافة العباسية ؛ لكن الخلفاء العباسيين قد سيّروا ضدهم الحملات ، وبلغ من حرصهم أن أنشأ المهدي منصبَ صاحب الزنادقة لتعقب أصحاب الزيغ والضلال ، كما نشط علماء المسلمين في إظهار حقيقة تلك الفئة، فألفوا الكتب في الرد على آرائهم ، وألقوا الخطب والمواعظ في بيان فساد عقيدتهم.

وباختصار فإن العصرَ العباسيُّ الأولَ يتسمُ سياسياً بمدتين منفصلتين :

**الأولى** : مدة قوة الخلفاء ، وعظمة ، وسمو الخلافة وذلك من ١٣٢ هـ إلى ٢٤٧ هـ وهي مدة تبدأ من حكم السفاح إلى جعفر المتوكل حيثُ كان مصرعه نهاية هذه المدة.

**الثانية**: عهد تحكم الأتراك في قيادة الجيش في أمور ، وقضايا الخلافة . وذلك من مصرع المتوكل إلى حكم البويهيين بغداد .

تنتقلُ إلى العصر العباسي الآخر من خلافة العباسيين الذي بدأ باستيلاء البويهيين على بغدادَ، وتنتهي بسقوطِ بغدادَ في أيدي التتارِ المخربين ، ومقتلِ المعتصمِ باللهِ آخر الخلفاء العباسيين – حيثُ إنه لما تولى الحكمَ – قد لاحظَ سيطرة الفرس على مقاليد الحكم ، وكانت من النكبات التي حلت بهم مثل نكبةِ البرامكة ، وبني سهل ، هذا بالإضافة إلى ظهورِ حركاتِ الزندقةِ ، والإلحاد بين الفرسِ تلك التي حاول العباسيون القضاءَ عليها بحدّ الشرع ، كما قامَ العلماءُ بإبطال هذه العقائد . .

من هنا– ولهذه الأسبابِ – اعتمد المعتصمُ على العنصرِ التركي [١٧] حيث سمحَ لقوادِ الأتراكِ ؛ كي يتولوا زمامَ الأمورِ في الدولةِ خلفاً للعرب ، ونكايةً في الفرس ، وكذلك فعلَ الواثقُ ابنُ الخليفةِ المعتصمِ ، ولربما زاد في أن جعل كبيرَ القواد الأتراك " أشناس" سلطاناً ، وولاه كل غربيّ الخلافة الإسلامية ، كما ولى زميلاً له كل شرقيّ الدولة ، وأصبحت الخلافة نفسها بعد ذلك لا تُولي إلا لمن وافق هوى الأتراك ، وخضعَ لهم ؛ فبدأ الضعفُ يدبُّ في الدولةِ العباسيةِ ، فاختُلِسَت الأموالُ ، ونُهبت الخزائن وتولى السلطة من ليس أهلاً لها ، وأدخلت النساء أنوفهن في كلّ شؤون الحكم ، ونشبت الفتن مثل فتنة "الزنج ، وفتنة القرامطة "، واستقل أمراء الأقاليم بإماراتهم ، ولم تكن تربطهم بالخلافة في بغداد إلا الرابطةُ الدينيةُ بل إن بغداد نفسها وقعتْ تحتَ سيطرةِ سلطانِ بني بُويَه الذين كانت لهم اليدُ الطولى في نظام الحكم والإدارة ، ورزختْ الخلافةُ العباسية تحت مطرقةِ الراضي ، وسندان العناصر التركية المهيمة على الجيش ، وقبضتها على مقاليد الأمور فراحت توليّ وتعزل من تشاءُ من الوزراء محركها – في هذا وذاك – الأهواءُ والمطامع الشخصيةُ ، ثم وقع ما كـ يحاذَرُ منه وهو هروبُ كثير من الوزراء ممن شغلَ هذا المنصب ؛ لذا اضطر الراضي إلى إلغائه ثم استبدل إياه بمنصب جديد هو إمرة الأمراء ، ولعله يقصدُ من وراء تغيير هذه الإدارة السياسة أمرين :

**الأول** : إراحة نفسه من الصداع التركي الذي راحَ يدبّ في رأسِ الخلافة العباسية حتى كاد يعصفُ بهيبتها ، ويذهب بجلالها دون رجعةٍ .

**الآخر** : الإبقاءُ على بعضٍ من ملامح الوجه العباسي أملاً في تحديده وتشخصيه .

وقد انتخب له أحد الولاة الأشداء وهو محمد بن واثق والي (واسط) حيث أسند إليه إمارة الجيش ، ومقاليد الأمور ، ودخلوا بغداد لما انتهزوا فرصة موت أمير الأمراء (توزون) عام ٣٣٤ هـ ، واختيار زيرك شيرزان لكن أحمد بن بويه الذي تولى الأهواز قد هزمه ، وأخذ منه إمرة الإمارة التي ابتدعها الراضي ، وهنا قوى ساعد بني بويه ، وعظم شأنهم ورسخ أمرهم ، فصارت خلافتهم مرهوبة الجانب ، بعد ما احتلت المكانة السامقة في الدولة العباسية قرابة مائة وثلاثة عشر عاماً ؛ لكن الصراع والنزاع على الإمارة دب بينهم فضعف سلطانهم حتى زالت دولتهم على يد الأتراك السلاجقة[١٨] الذين استولوا على بغداد ، بعد أن رأوا ضعف البويهيين المتمثل في سوء إدارتهم لشؤون الخلافة ومصالح البلاد . وهذا ولم يتوقف الزحف السلجوقى عند بغداد ، بل استولوا على الدولة الغزنوية في الهند ، وأفغانستان ، كما استولوا على الدولة البويهية دون أدنى عناء رغما أن الذي ساعدهم على ذلك العلاقات الطيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين المتمثلة في اعتناقهما المذهب السني "[١٩] .

على كلٍ فلقد أسسوا دولة عظمى في مشرق العالم الإسلامي حيث ازدهرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين وتفرغوا ؛ لتحمل أعباء العالم الإسلامي الجسام ، والنهوض بها لكنهم انقسموا فيما بينهم وخصوصاً بعد مقتل أرطغرالبك آخر سلاطين الدولة السلجوقية حيث ضعف السلاحقة بسبب ضعف شخصية السلاطين الذين اعتلوا عرش السلطة منذ أيام محمود بن محمد بن ملكشاه ، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي وظهور دول الأتابكة [٢٠] وانتهاز الخليفة الناصر لدين الله بأن يستقل بالخلافة على أنه من الصعوبة - بمكان أن يجمع ماتفرق ، وأن يقرب ما تباعد بحكم النزعات الانفصالية وكان ذلك إيذاناً بسقوط الدولة العباسية عام ٦٥١ هـ هذا أولاً

**ثانياً : هجوم التتار المتواصل :**

وهذا بيان بأهم الدويلات التى انقصم عراها عن الخلافة العباسية وقد أخذت تتصارع فيما بينها :

(١) **(الدولة السامانية)** بداية في بلاد ما وراء النهر ثم بسطت سلطانها بعد ذلك على

بلاد خراسان وتركستان ٢٦١ - ٣٨٩ هـ ومؤسسها نصر بن أحمد السلماني والي العباسيين على تلك البلاد ومركزها مدينتا (سمرقند) و(بخاري).

(٢) (الدولة البويهية) في بلاد فارس والعراق ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ ترجع إلى الديلم الذين كانوا يسكنون البلاد الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ ، الخزر تنسب إلى أبي شجاع بويه الديلمي الذى نسل كلاً من على وأحمد والحسن حيث استطاع على بويه أن يؤسس دولته جاعلاً من إقليم فارس أساساً لدعوته ، ثم انطلق أحمد بويه إلى بغداد فلقبه الخليفة المستكفي بمعز الدولة ، ولقب أخاه علياً عماد الدولة ، وأخاه الحسن ركن الدولة وكان مذهبهم شيعياً على مذهب الزندية

(٣) (الدولة الغزنوية) في أفغانستان وشمال الهند ٣٥١ - ٥٨٢ وعاصمتها مدينة (غزنة) ومؤسسها (اليكتين) حاجب الحجاب فى بلاد السامانيين .

(٤) (الدولة السلجوقية ) في تركستان وإيران والعراق ٤٣٢ - ٥٩٠ هـ وقد تحدثنا عنها آنفاً .

(٥) (الدولة الخوارزمية) هي التي أسسها أحدُ مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي واسمه اتشجين حين جعل هذا السلطان العظيم على ولاية خوارزم سنة ٤٧٠ هـ

(٦) (الدولة الأخشيدية)[٢٤] في مصر والشام ٣٢ - ٢٥٨ هـ .

(٧) (الدولة الفاطمية) [٢٥] في مصر والشام وتوابعها ٣٥٨ - ٥٦٠ هـ

(٨) (الدولة الحمدانية) [٢٦] في الموصل وحلب ٣١٧ - ٣٩٤ هـ

(٩) (الدولة الأتابكية الزنكية )[٢٧] في الموصل والشام وتوابعها ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ

(١٠) (الدولة الأيوبية) [٢٨] في مصر والشام - ٦٤٨ هـ

(١١) (دولة المماليك )[٢٩] في مصر والشام وتوابعهما ٦٤٨- ٩٢٣ هـ

هذا بالإضافة لدويلات أخرى أقل شأناً ، وأصغر حجماً وقد انتشرت في أنحاء متفرقة من الدولة العباسية مثل :الدولة الزيادية ، والدولة النجاحية في اليمن والدولة كذلك والدولة (الزيارية ) في جرجان بفارس ، و(العقيلية).

**ثانياً: الحياة الاجتماعية:**

لم يكنْ المجتمعُ العباسيُّ على حالٍ واحدةٍ – شأنه في ذلك شأنَ سياسته التي تقلبت على حسب ظروفه ، وولاة أمره ، وما تخللته من مواضعاتٍ ومداخلاتٍ أعجميةٍ مابين قوة أو ضعفٍ – حيثُ غلبت عليه الإقطاعيةُ الملكيةُ تلك التي تفشت فيه فنجد طبقةَ الخلفاء والأمراء ترفلُ في الثراءِ الفاحش ، وتتكدسُ الأموالُ في خزائنهم ؛ لذا اهتموا بإقامة القصورِ الفخمةِ ، وزراعةِ البساتين ،والنافوراتِ والتماثيلِ ، وأحواضِ السباحةِ ، وحدائق الحيوان ... وكلّ هذا كان على المستوى الشكلي، أما على المستوى الشخصي أو الفردي فقد كانت تُحملُ إليهم حمولُ الذهب والفضة من أطراف الأرض حتى قيل : إن الخليفة المنصور خلّف – حين توفي– أربعة عشر مليوناً من الدنانير ، وستمائة مليون من الدراهم . وكان دخلُ بيت المال سنوياً في عهد الرشيد نحو سبعين مليوناً من الدنانير ، وكان الخلفاءُ والولاةُ والقوادُ يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والكتّاب والمغنين ، وكان عطاءِ البرامكة ، وغيرهم مضرباً للأمثال ومثاراً للدهشة والعجب !!.

فهذه الثروةُ الخياليةُ كانت من أمضى أسلحة الخلفاءِ في تحقيق مشروعاتهم السياسية وخصوصاً في كسب الأنصار ، وتأليف قلوبهم ، وإنجاز مشروعاتهم المدنية –كتأسيس بغداد وسامراء – وبعث الثورة العلمية ، وقد ظهر أثرُ ذلك كله في نهضة العلوم والآداب لاسيما الفنونُ ، إذ كفى أصحابها مئونة العيش ؛ لكنه كان يرتب –لكثيرين منهم الرزق المعلوم يأخذونه كلّ شهرٍ ، أو كلّ سنةٍ حتى روي أنه صار إلى إبراهيم الموصلي الموسيقي والمغني المشهور أربعة وعشرون مليون درهم سوي رزقه ، أو راتبه الجارى ، وقدره عشرة آلاف درهم في كلّ شهرٍ سوى غلاتِ ضياعه، وعجباً على ما سار المجتمع إليه ....! هذا أولاً.

ثانياً: أن نساءَ الخلفاءِ اللاوتي اشتركن مع الرجال اشتراكاً فعلياً في ميدان العمل والاجتماع وخصوصاً زينب أم الوليد التي نبغت في علم الشريعةِ ، وكذلك زبيدة زوجة المنصور التي نبغت في الشعر[٣٠]– قد استفحل ثراؤهن حتى فحش ، إذ كانوا يكتنزون الكثير من الأموال حتى قُدّرت ثروةُ قبيحةَ أمّ المعتز بأربعة

ملايين مابين نقود ، وسبائك الذهب والفضة والزمرد واللؤلؤ والياقوت ، ومع هذا فلقد عجز ابنها عن دفع أعطيات الجند التي لم تتجاوز خمسين ألف دينار وأبت أن تدفعها إليه ؛ لتنقذ حياته وتفديه من القتل ، وعلى نحو ذلك كانت تفعل أم المستعين وأم المقتدر "[٣١]...!

هنا ولم تؤدِّ تلك الأموالُ إلى النعيم فحسب بل إلى الترفِ الفاحشِ في كل مظاهر الحياة وأسبابها المادية ، وظهر تأثيرُ ذلك على الأدباء ، إذ لبس الشعراءُ الوشي والمقطعات الحريرية ، ولبس المغنون قطوعَ الديباج والخزَّ ، وتعطروا جميعاً بأنواع الطيبِ الغاليةِ.

وإلى جانب هاتين الطبقتين كانت هناك طبقةٌ كادحة سُلبت منها ثرواتُها ومقدراتُها بحيث تعملُ حتى تستطيع العيش وهي تمثل السواد الأعظمَ من الأمةِ ، وتشتمل على الزراع والصناع والتجار ، أيّ أصحاب الحرف الذين طحنتهم ظروفُ هذا المجتمع المتباين في حياته المعيشية ؛ لكنه إذا ما قيس بالعصر الأموي فإنه قد ارتفع فيه مستوى دخل الفلاحين والعمال ، وتوطد نفوذُ البرجوازية في الميدان الحكومي والاقتصادي والاجتماعي ، ونشأت فيه طبقةٌ رأسمالية جديدةٌ أفادت من التحول والاقتصادي ، والنهضة الزراعية والتجارية [٣٢].

هذا ولقد كان للإقطاع آثارٌ سلبيةٌ متمثلةٌ في تفسخ العلاقات الإنسانيةِ ، وضعف الوازع الديني والخلقي والوطني ، وخصوصاً في القرن الثالث الهجري ؛ لأن الإقطاعَ رفعَ طوائفَ معينة إلى حيث الثراء والترف ؛ بينما هبط بأخرى إلى وهدة سحيقة من الفقر المدقع .. وعجباً على ما صار إليه مجتمع هذا العصرِ .

مهما يكنْ من أمرٍ فإنَّ منَ السلبيات التى قوضت دعائم هذا المجتمع نذكــــرُ :

**أولاً : اللهو** الذي انكب عليه الخلفاءُ والأمراء إسرافاً وتبذيراً كما لجأ إليه عامة القوم ولربما الفقراء ؛ هروباً من الواقع المرير بكل تكتلاته ، ومتطلباته ، وألوانه ، وعرقياته من هذا اللون نجد التلحين الذي صادف هوًى، بل ملأ فراغاً كبيراً ، وقد لاقى قبولاً -أكثر من الغناء - لدى الخلفاء والأمراء حتى إن بعضاً منهم

قد أشتهر بالتلحين لهؤلاء المغنيين كالواثق والمنتصر والمعتز والمعتضد .

أما الغناء فلقد بالغوا في استحسانه فانزلوه من نفوسهم منزلة راقية حتى صار الغناء فناً وعلماً محبوباً تُفتَّح له القلوبُ على مصراعيها ، وتؤلفُ فيه المراجعُ ، وتستخدمُ فيه الآلات ، ونذكر منها الآداب الرفيعة في الغناء والمنادمات لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر "[٣٣]" كذلك فإن كتاب الأغاني للأصفهاني الذي اشتمل على مائة أغنية اختارها إبراهيم الموصلي للخليفة هارن الرشيد " لآيةٌ تؤكدُ اهتمام العباسيين بالغناء ، ولعل ارتباط الغناء بالشعر كان دافعاً قوياً ؛ لأن يحظى بالمكانة السامقة في هذا العصر ، هذا ولقد اختاروا للغناء أحسن الجواري ، وأجملن شكلاً وأعذبهن صوتاً حيثُ امتلأت قصورُ بغدادَ بهن .

هذا بالإضافة إلى وسائل الترويح والتسلية مثل سباق الخيل ، وسباق الحمام الزاجل ولعبة الصولجان ، ولعبة الشطرنج ، والنرد ، كما أحبوا الصيد بالصقور والكلاب والفهود . وقد وصف الشعراء كل ذلك نذكر منه ما جاء عن الخليفة المهدي أنه خرج ذات يوم ومعه عليُّ بن سليمان العباسي فعرض لهما ظبيٌ سانح ، فرمياه ، وأصابه المهدى ، أما عليُّ بن سليمان فقد أصاب كلباً من كلاب الصيد ، فقال أبو دلامة الشاعر معتذراً ومتفكهاً :

| | |
|---|---|
| قد رمى المهديُّ ظبياً | شَكَّ بالسهم فؤادَهُ |
| وعليُّ بن سليمـــا | ن رمى كلباً فصادهُ |
| فهنيئاً لهما كـــلُّ | امرئ يأكـــلُ زادهُ |

وكان للعامة ملاهيهم التي كانت على شاكلة (عالم السيرك) في أيامنا هذه مثل مشاهدة القرادين والحوائين والاستماع إلى الحكايات والقصص لاسيما الديني ، كما كانت لهم مجالس سمرهم التي يتداولون فيها الأساطير أو الأباطيل والأسمار ، والأخبار ، وقد تولد عن هذه المجالس - فيما بعد - تلك الحكايات الشعبية المشهورة مثل "ألف ليلة وليلة" والسِّير الشعبية .

**ثانياً : احتساء الشراب** وخصوصاً شربَ الخمر ، وذلك بكثرة المجالس حيثُ كان لكل خليفة حا شيةٌ يختارهم من بطانته ، والذي ساعد على ذلك "انتشار الأديرة المسيحية في منطقة العراق حيث كانت تحيطُ بها حدائقٌ واسعةٌ الانتشار ، تزرعُ فيها الكرومُ ، ومن هذه الكروم تعصرُ الخمورُ في معاصرَ موجودة فيها ؛ لأن الخمر كانت تدخل في بعض الطقوس الدينية المسيحية"

**ثالثاً : ظهور المرجئة**: بمذهبهم الديني الذي يقول بمطلق العفو وقد استغله شبابُ هذا العصر أسوأ استغلال إذ يعتبرون أن الإيمان هو التصديقُ بالقلب ، وليس العمل ضرورياً فيه ؛ لذا ليس من حق أحد أن يحكم على إنسان بالكفر أو الفسوق - كما يذهب الخوارج والمعتزلة - مادام مؤمناً بالله ورسوله فهذا الحكم من حق الله وحده يومَ القيامة .

**رابعاً : المجون** حيث كان الشرفاء من الخلفاء والأمراء والوزراء يترفعون عنه بينما انغمس فيه الساقطون من المولدين والزنادقة للتشكيك في الدين ، أو هز صورته ؛ لذا فإنهم كثيراً ما كان يرتكبون الحماقات ، وكل هذا كان بعامل التأثير من الفرس .

**خامساً : الشعوبية** :ظهرت كلون من الإعجاب بالحضارة الفارسية ، وما تمليه لشباب هذا العصر من فرص اللهو والترف والمجون ، ولعل أصدق ما عُبرَ به عنها أنها كانت صورة حاقدة على العرب ، تهدف إلى تقويض دعائم الحضارة العربية ، أو طمس معالمها ثم " هدم السيادة العربية التي منحها الإسلام ، والتحقير من شأنها ، وإهمال فضلهم على غيرهم [٣٤].

ثم يمضي هذا العصر على هذا الاتجاه حتى ليخيل لنا أن بغداد كانت مدينة الفسق والخلاعة ، والواقع أن هناك الكثير من **المزايا التي تميز بها هذا المجتمع منها** .

**أولاً**: أنه قد انصهرت فيه أجناسٌ أعجميةٌ عدة ، أهمها الفارسي الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية حيث ضحى الفرسُ بالكثير من الأموال والخبرات في سبيل إعلاء الدولة العباسية آنذاك .

**ثانياً** : لقد كان اختلاط العرب بالروم ، واتخاذهم المملوكات من الروميات والفارسيات والتركيات والزنجيات امتحاناً قاسياً كان من مزاياه أن سادت العدالةُ التامةُ ، كما ظهر جيل متميزٌ بصفاتٍ اجتماعيةٍ ، وإن بلغت الحضارةُ الإسلاميةُ غايةً من الإبداع والازدهار وذلك بتضافر الجهودِ ، وكثرةِ وتعددِ التضحيات ، وإنفاق الطاقات ، وتنوع المواهب ، وكثرة الخبرات .

**ثالثاً**: ظهرت نزعةُ الزهد التي جاءت ردّ فعلٍ للمجون، وقد فسره كثيرٌ من مؤرخي ونقاد هذا العصر بأنه بداياتٌ حقيقيةٌ للتصوف تلك التي أرجعها الدكتور عبدالله التطاوي إلى ماقبل الإنقلاب العباسي ، أي عند مبعثِ أو عصر الرسول حيثُ إنها جاءت اعترافاً ، وتأكيداً على الفكر الغيبي الذي أنكره أصحاب الزندقة وقد انطلق من فهم واعٍ للدين والتشبث بالدفاع عنه عبادةً وسلوكاً(٣٩)

**وفي العصر العباسي الثاني** تباينت الأحوال الاقتصادية لطبقات المجتمع المختلفة في هذا العصر تبايناً ملحوظاً وبخاصة مع زيادة الاختلاط أو الامتزاج القوي بين الأمة العربية والأمم الأجنبية الأخرى ، أو الهجرةَ المطردةَ إلى المدن الكبرى ... كل هذا أدى إلى نقص الأيدي العاملةِ وبالتالي ارتفعت الأجور ؛ لكنه - على صعيد آخر - أسهم في نشأة جيل جديد متميز بصفاتٍ نفسية وخلقيةٍ وعقلية معينة حيث اتخذوا آلات اللهو والطرب ومجالس المنادمة ، وكان هذا من نصيب الحكام وحواشيهم وكبار التجار، وانعكس ذلك على حياتها الاجتماعية فنتج عن هذا وذاك طبقية توزعت في :

* طبقات عليا تحيا حياة الثراء والترف والحضارة .

* طبقات متدنية معيشياً تجد الصعوبة البالغة في توفير وتأمين أدنى متطلبات الحياة اليومية وهم الكثرة ووسائل الغالبة من السواد الأعظم ذي الزغب ، وفيهم - إلى جانب العمال الكادحين - كثيرٌ من العلماء والأدباء وقد كان مصيرهم إلى اللهو والفساد شأنهم في ذلك شأن الأغنياء ولربما نشأ عن هذا كله أنهم استخدموا الكدية وسيلةً للاحتيال على الرزق حيثُ نتج عنه لون أدبي جديدٍ مستقلٍ في هذا العصر ألا

وهو (فن المقامات) على يد بديع الزمان الهمذاني ، هذا وسنعرض له حديثاً مفصلاً بوصفه فناً مستقلاً .

نعود إلى الطبقة العليا فنقول : إن تكدسَ الأموالِ ذاك الموروث الذي تركه العباسيون الأوائل لمن سيخلفهم لم يجدوا سبيلاً لإنفاقه سوى زيادة حركة بناء القصور الفاخرة ، وتأسيسها على أحدث الطرز من فرشٍ وأواني للفرس فضلاً عن هذا كله فلقد تمّ تزيين العاصمة زينةً لم تلقها مدينة أخرى . كما دخلت عادات في المأكل والشراب والملبس لم تكن موجودة من قبل .

هذا ولقد كان للامتزاج - أيضاً - آثارٌ إيجابيةٌ منها شيوعُ روحِ المودةِ والتسامح بين الأجناس على الرغم من اتساع رقعة الدولة العباسية ؛ لكن المرض الخبيث الذي صعب استئصاله أو محاصرته هو الشعوبية التي تفشت وتغلغلت في هذا المجتمع وخصوصاً أنه لم تقتصر المنافسة على العرب والفرس -كما كان الحال في العصر الأول- بل بين العرب وأبناء الشعوب الأخرى من ترك ونبط وسريان وغيرها ، وقد تصدى لهذه الادعاءات -كلٌّ من الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين" وكذلك ابن قتيبة الذي تبنى الرد على هذه النزعةِ الآثمة رداً عنيفاً ، في كتابه " كتاب العرب ، أو الرد على الشعوبية " وفي مقدمة كتابه " أدب الكاتب " .

إن ما يجدر ذكره هو أنه قد ظهرت - في هذا العصر- حركةٌ دينيةٌ عميقة -وقد بدأت بذورها في العصر العباسي الأول - إنها الصوفيةُ التي اتخذت مساراً علمياً مبتكراً في تربية المسلم الصالح .

## ثالثاً : الحياة الفكرية ، وازدهار العلوم :

ومع إشراقة هذا العصر نرى شمسَ حياته الفكرية تسطعُ في سماء العلم محققةً نهضةً عظيمةً في شتى مناحي العلم ، ودروب المعرفة وذلك بتوجيه وتشجيع وعناية وتقدير فائقِ الحد من الخلفاء والحكام .. كلٌ يورثُها لمن سيخلفهُ ، ويستمر الحال هكذا حتى يجئَ عصر المأمون فيمثل الذروة في التقدم والنهضة والسيادة حتى صار العراقُ كعبةً يقصدُها طلاب العالم ، أو مزاراً يحطُ العلماء - في ردهاته - برحالهم ، لينهلوا من فيضه أنيَّ ، ومتى شاءوا ؟ .. ولم لا ؟ وقد كان الكُتاب المترجمُ يوزن ذهباً ، ويُعطى لمترجمه .. ! هذا أولاً .

**ثانياً** : تنافست البصرةُ والكوفة وبغداد[٣٧] ، وسامراء والقاهرة والقيروان وقرطبة في جذب النابهين من العلماء ، وإغداق الأموال والهباتِ ، والعطايا . فضلاً عن إغرائهم بالحفاوة والتقديرِ وحسن المقام .

**ثالثاً** : الاستقرار الاجتماعي الذى غمرَ ربوع المدن ، وانسحب على بقية الحواضر العباسية حيثُ كان من شأنه أن قضى على الفتن والثورات ، ومكن البرجوازية التي صنعتها الثورة من التغلغل في المجتمع ، وفتح الآفاق أمام الطبقة العاملة لمزيد من التحرر ، وتدفق المهاجرين إلى المدن التي شهدت ألواناً إجتماعيةً جديدة.

رابعاً : تطوير الهيئات التعليمية وشموليتها ، واتساع نظامها بكثرة الإقبال عليها ، وتعدد أدوارها ، ولعل ما ساعدَ على ذلك :

أ - تطوير وظيفة المساجد الكبرى التي تمثلُ المراكز التعليمية الأولى بتحلق المتعلمين حول شيوخها وعلمائها في صحونها بحيث تجاوز عملها إلى التعليم والتثقيف بجانب العبادة ولم لا ؟ والأمنُ الموفور ، والمستوى المعيشي المرتفعُ ، والتشجيع الكثير .. كل هذا كان له أثره في اشتداد الرحلة إلى الأمصار إذ رحلَ علماءُ اللغة إلى البادية يجمعون اللغة ويقعدونها .

ب - تطوير دور العلم ، والمجالس ، لتستوعب المناظرات والمحاورات والمشاورات .

جـ - كذلك صارت قصورُ الخلفاء ، وبيوت الأمراء ، وكبار رجالات الدولة منتديات علميةً ، وقد انتدبوا كبار اللغويين لتعليم أبنائهم . فالفضل كان معلماً للخليفة المهدي ، والكسائي كان معلماً للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ، والفراءُ كان معلماً لأبناء المأمون .

د -وفرةُ صناعة الورق الذي أستعمل في الكتابة بعد إن سهّل التعليم ، وتأليف الكتب،فاعتنوا باقتناء الكتب التي تضم كلَّ نفيس في العلوم والآداب .

خامساً :شهد العصر حركة التدوين الواسعة للتراث كله شعره ونثره فكان هذا العمل من المنجزات الثقافية في محيط الفكر العربي .

سادساً:ظهور ترسيخ القواعد حيث رُفعت عليها أعمدةُ الثقافة العربية في الأمصار بسبب انتشار الإسلام ، واستقرار العرب ، ونمو السلطان السياسي للأمصار ، وتفوق المدارس الإقليمية وخصوصاً مدرسةَ القيروان ، ومدرسة القسطاط . هذا بالإضافة إلى مدرسة مصر والشام والحجاز .

سابعاً : إن هناك عاملاً هاماً...قد كان له أثره الكبيرُ في التقدم الفكري الذي شهده هذا العصر العباسي الأول ، هذا العاملُ هو النجاح الكبير الذي أحرزتهُ الدعوةُ إلى الإسلام في القرن الثالث الهجري حيث كان هذا مصحوباً بإسقاط ديون العرب وفقدانهم امتيازاتهم السياسية والعسكرية واستقرارهم بالريف وعملهم بالزراعة ، واختلاطهم بأهل البلاد .

ثامناً : واكبت الثورة العباسية حركةً إسلاميةً ضخمة من جماهير الموالى والإيرانيين[٣٨] استطاعت أن تحرر عامة المسلمين منهم ، وأزالت العقباتُ التي كانت تعترضُ طريقَ مشاركتهم في الحياة السياسية [٣٩]وقد ساهمت بجهد كبير في إثراء الحياة .

من كل هذه العوامل ازدهرت العلوم الأصيلةُ والدخيلةُ ازدهاراً كبيراً هذا وسنعرضُ - في عجالة - مظاهرَ ازدهار هذه العلوم بشئ من الإيجاز مقسمين إياها في قسمين: **الأولى : العلوم الأصيلة ونذكر منها العلوم اللسانية وهي :**

* **اللغة** :مع امتداد حركة التدوين إلى ميدان اللغة والأدب رأينا الدارسين يتجهون إلى جمع الألفاظ التى نطقَ بها العربُ ، وكان علماءُ الأمة من بصريين وكوفيين يتسابقون في الرحلة إلى البادية يمضون الأعوامَ فيها يخالطون الأعرابَ ، ويسجلون عنهم ، ثم إن عَكْسَ ذلك كان يحدثُ لدى كثيرين من الأعراب إذ يفدون إلى مدن العراق ؛ ليأخذ العلماء عنهم اللغة ، وبعض هؤلاء الأعراب كان يكتب فيؤلف كتباً [41] ومنهم من كان يعلم اللغة والنحو . ولأن اللغة العربية هي لغة هذا الدين والقرآن ؛ فقد أقبل الجميع على دراستها ، حيث كان المسلمون من الفرس أكثر تلك الأجناس اهتماماً بالبحث فيها ، والتعمق في ترجمة رموزها الكثيفة وقراءة ما خلف السطور ، وكان من نتاج ذلك أن المناصب العليا في الدولة - مثل منصب الوزارة- كان لايصل إليه إلا العالمُ باللغة والمتأدب بأدبها ، وكان الفرس حريصين على تلك المناصب ، حتى أنه ظهر فى أواخر العصر الأموي كتاب كانوا رواداً للنثر الفني العربي ، مثل عبدالحميد الكاتب ، وسالم مولى هشام ، كذلك اهتم علماء اللغة في البصرة والكوفة منذ أواخر العصر الأموي بجمع ألفاظ اللغة ،وأشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، ولقد تعاقبت أجيال ثلاثة من علماء البصرة انصرفت إلى هذا الهدف الأسمى الذي وضعوه نصب أعينهم ، حيث رأس أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني المتوفي سنة ١٥٤ هـ الجيل الأول وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أُخِذَت منهم قراءاتُ القرآن الكريم ، وكان حجة موثوقاً بروايته ،عالماً بالغريب ،حافظاً للشعر القديم ،عارفاً بأيام العرب ،ألف في القراءات والعربية وأيام العرب ،ولهجات القبائل ،ولكنه أحرق مؤلفاته بعد تنسكه، وتفرده للعبادة ، وقيل : إن كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف [24].

ومن أشهر أفراد الجيل الثاني خلف الأحمر المتوفي سنة ١٨٠ هـ وهو خلف بن حيان

ويكنى بأبي محرز ، كان من مريدي حماد الراوية ، أجمع الناس على الإقرار بموهبته ومعرفته الصحيحة بالشعر الجاهلي القديم ، وأبو زيد الأنصاري المتوفي سنة ٢١٤ هـ كان أعلم من أبي عبيدة والأصمعي بالنحو حيثُ كان من أوثقِ الرواة ، له كتُبٌ كثيرةٌ أثبتها ابن النديم في كتابه "الفهرست" هذا ويقول في مقدمة كتابه النوادر " ما كان فيه من شعرالقصيدة فهو سماعيٌّ من المفضل الضبيّ ، وما كان من اللغات ، وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب "[٤٣]. وهناك أبو عبيدة بن المثنى المتوفي سنة ٢١٠ هـ الذي حصر اهتمامه على علم الأنساب والأخبار حيثُ كان ثقةً يُعْتَمدُ عليه حتى قيل : إنه كان أعلمَ الناس بأيام العربِ وأخبارهم ، وأجمعهم لعلومهم .

والأصمعي-وهو أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي الباهلي – أتقنُ القوم للغة ، وأعلمهم بالشعر ، وأحضرهم حفظاً وأكثرهم ثقةً بروايته ... تعدُّ مجموعته التي اختارها من الشعر الجاهلي والإسلامي من أوثق المجموعات التي وصلت إلينا من الشعر القديم ورويت عنه دواوينُ كثيرةُ أشهرها مجموعة الدواوين الستة : ديوان امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وعلقمة بن عبدة ، وأهم أفراد الجيل الثالث محمد بن سلام الجمحي" (المتوفي سنة ٢٣٢ هـ ) صاحب كتاب " طبقات فحول الشعراء "الذي يوثق فيه الشعرَ القديمَ ، ويترجمُ لشعرائه واضعاً إياهم في طبقاتٍ ومجموعاتٍ حسب جودتهم الفنية .

أما علماء الكوفة فإن أشهر نابغيها من الجيل الأول اللغوي الراوية المفضَّل الضبي (المتوفى سنة ١٦٤هـ) من أكبرِ فحولِ الكوفةِ في الرواية ، حيثُ تُعد مجموعته الشعرية التي اختارها من الشعر الجاهلي – وقيل إن المهدي هو الذي اختارها بنفسه وقد لقِّبت بالمفضليات " – أنفسَ مجموعاتِ الشعرِ القديم .

ثم كان من أشهرِ الجيل الثاني أبو عمرو الشيباني (المتوفي سنة ٢١٣هـ) حيثُ اهتمَّ بجمع شعر القبائل حتى قيل : إنه جمع أشعار نيفٍ وثمانين قبيلةً ، اشتهر بمعرفته للأنساب والأيام ورواية الشعر ، وقد عاصره – أهم علماء الجيل الثالث وهو– اللغوي الراوية ابن الأعرابي (المتوفي سنة ٢٣١ هـ) حيثُ رويت عنه دواوينُ كثيرةٌ وكذلك أبو

عبيد القاسم بن سلام ؛ وله مصنفات كثيرةٌ من أشهرها " غريبُ الحديث ".

وعلى كل فإن جمعَ اللغة قد مرَّ بمراحل ثلاث الأولى :اعتمدت على الجمع والاستقصاء في جمع الكلمات حيثما اتفقت ، الثانية : جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد ، والأخيرة : تمّ فيها وضعُ معجم يشملُ كلَّ الكلمات العربية على نمط خاص.

*أما النحو فلم يكن العلماءُ أقلَّ اهتماماً به من علوم اللغةِ الأخرى ، ففي البصرة سبق الخليلَ بن أحمد – مخترعَ علمي العروض والقافية – علماءُ عبدوا الطريقَ لعلم النحو لكنّ ما يحسب للخليل هو أنه وضع تصوره النهائي عنه ، وقد أداه عنه تلميذه سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ في مصنفه المسمى باسم (الكتاب) ؛ تعظيماً له إذ يعدُّ آية دالةً وكاشفة على رقي العقل العربي .هذا ولم يكنْ الكتابُ درَّةَ هذا العالم فحسب؛ بل يعزي إليه الفضلُ في ابتكار طريقةِ المعجم ، وإحصاءِ ألفاظ اللغة ، وترتيبها على حسب مخارج الحروف ووضع كتاب العين أول معجم في اللغة العربية ثم تقفى ابن دُرَيد أثره وذلك في جمهرته . وعن علمه الوافر هذا سأله الكسائي قائلاً : من أينَ علمُكَ هذا ؟

قال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة .

أما في الكوفة فقد كان الكسائي شيخَ الطبقةِ الثانيةِ ، المتوفي سنة ١٨٩ هـ واسمه ابن حمزة مولى بني أسد ، وأصله فارسي – نحويٌّ – مؤسسَ المذهبِ الكوفي إذ تعلم النحوَ على كبر ، أخذه من أبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء ، وخرج إلى البصرة ولقي الخليل وأخذ عنه ، وهو معدودٌ من القراء السبعة ... يقال إنه خرج في طلب اللغة حتى قيل إنه استنفذ خمسَ عشرةَ قنينةً حبراً سوى ما حفظه ، استقدمه الخلفاء العباسيون إلى بغداد ؛ ليعلم أبناءهم ، وقدمه البرامكة فارتفعت منزلته ، وكان الخليفة الأمين يتعصبُ لمعلمه الكسائي في مجالس المناظرات . وللكسائي عدة كتب في النحو والقراءات والأدبِ والنوادرِ لم يصل إلينا منها إلا رسالة " لحن العامة "(٤٤).

عوداً فإن الفراء المتوفي سنة ٢٠٧ هـ كان مثل أستاذه الكسائي – من أنبغ علماء الكوفة في النحو حيثُ كان كتابه " معاني القرآن " خير آية على ذلك.

* **وفي البلاغة** ألف أبو عبيدة بن المثنى كتابه الخالد " **مجاز القرآن** [45] ثم جاء أدباء متخصصون في البيان وقد خلفوا الجاحظ الذي وضع أسساً لبعضٍ من المذاهب البلاغية في البيان والتبيين ثم جاء ابن المعتز وقدامة ، وقد ألفَ كلٌ منهما كتاباً مشتملاً على أنواع البديع حيثُ كانوا قادةً وقد أحرزوا قصبَ السبقِ في هذا الميدانِ .

* **وأما في الأدب** فلقد وضع ابنُ المقفع [46] **الدرة اليتيمة في طاعة السلطان** للخليفة المنصور ، هذا إلى جانب كتابيه : **الأدب الصغير والأدب الكبير** حيث جاءا أشبه برسالةٍ تهدفُ إلى إرشادِ الخلفاءِ والوزراء ، وإصلاح معايش الناس ، كذلك فإن اختيار الأصمعي وأخبار وأحداث الهيثم ابن عدي الأدبية يمثلان بداية ، على طريق التأليف الأدبي .

## ثانياً : العلوم الدينية :

لقد نشطت هذه العلومُ ، وضوعفت العناية بتفسير القرآن الكريم حيثُ استمدت قوتها من العلوم اللغويةِ والنحويةِ ، يحفزها الحرصُ على لغة القرآن " من شيوع اللحن ؛ لذا فإننا قد وجدنا من العلماء من وهبوا حياتهم لها .

ففي مجال علم التفسير نجد أنه تجمع الحديث الذي روي في التفسير على أيدي رجال مثل سفيان بن عيينة المتوفي سنة ١٩٨ هـ ، ووكيع بن الجراح المتوفي سنة ١٩٦ هـ وإسحاق بن راهوية المتوفي سنة ٢٣٨ هـ وقد تعددت اتجاهات المفسرين مثل :

التفسير بالمأثور ، وتفسير المعتزلة العقلي ، وحسبنا أن نذكر إمام المفسرين الطبري المتوفي عام (٣١٠ هـ) في كتابه (جامع البيان) وهو أول كتابٍ عظيم وضع على مذهب السلف ، هذا بالإضافة إلى جمع الباحثين ألفاظَ القرآن الكريم ، ومفرداته حيثُ اجتهدوا في تحديد معانيها ، وكانت حافزاً على الرحلة لمعرفة مدلولها فجمعوا حول كل لفظة ما يتصل بها ، كما بحثوا عن الشعر الذي يستشهد به سواءً كان جاهلياً أم إسلامياً .

وفي الحديث بدأت الخطوات الأولى لتدوينه في عمر بن عبدالعزيز، وفي منتصف

القرن الثاني الهجري بدأ - في العصر نفسه - التأليف في الحديث ، وانتشرت هذه النزعة في الأمصار كلها ، ففي مكة جمع الحديث عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج المتوفي سنة ١٥٠هـ ، وفي المدينة محمد بن إسحق (١٥١ هـ) ومالك بن أنس (١٧٩ هـ) وبالبصرة الربيع بن صبيح (١٦٠ هـ) وسعيد بن أبي عروبة المتوفي سنة (١٦١) وحماد بن سلمة المتوفي سنة (١٦١ هـ) وبالكوفة ظهر سفيان الثوري (١٦١ هـ) وبالشام ظهر عبدالرحمن الأوزاعي (١٥٦هـ) وباليمن رأينا كلاً من : معمر بن راشد بن أبي عمر ، والأزدي المتوفي سنة ١٥٦ هـ وعبدالله بن وهب المتوفي سنة ١٩٧ هـ .

ولم تصل إلينا - من هذه المجموعات المبكرة - إلا موطأ مالك ووصف لبعض المجموعات الأخرى ، وأغلب هؤلاء الجامعين إنما فعلوا ذلك رداً على حركة فقهاء العراق القياسيين ، وأن أمثال مالك ، والأوزاعي ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد كانوا فقهاء مشهورين من مدرسة الحديث يؤثرون الحديث حتى وإن كان ضعيفاً .

وفي مستهل القرن الثالث ظهر التخلص من طبيعة المرحلة السابقة ، وذلك في مراعاة الأبواب ، ومزج حديث الرسول بأقوال الصحابة والتابعين والانفراد بالحديث فقط ، فصنف عبدالله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً ، ووضع مسدد بن مسرهد البصري مسنداً ووضع أسد بن موسى الأموي مسنداً ، ونعيم بن حماد الخزاعي مسنداً ، واقتفى الأئمة أثرهم ، فما من إمام من الحفاظ إلا وصنف مسانيد ، وكانت طريقتها ترتيب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة وأساس التقسيم هنا وحدة الصحابي الراوي . ومعنى هذا أن الحديث استقل عن الفقه ، وروى الحديث مجرداً من اي اعتبار وجمعت الأحاديث كلها صحيحها وسقيمها .

ثم بدأت المرحلة الأخيرة آخر القرن الثالث عندما نشطت حركة الجمع والنقد ، وتميز الصحيح من الضعيف ، وألفت أهم كتب الحديث .

فقد ألف البخاري الجامع الصحيح ، وألف مسلم صحيحه ، وألفت سنن ابن ماجة ، وسنن أبي داوود ، وسنن النسائي وهي الكتب الستة الصحاح [٤٧].

وامتد التدوين إلى **الفقه** فنمت الحركة ، واتسعت،وقد اصطبغت بصبغةٍ قانونيةٍ في الوقت نفسه مثلما رأينا في مذهب أبي حنيفة النعمان المتوفي سنة ١٥٠هـ ومذهب مالك ابن أنس ، ومذهب محمد بن إدريس الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ ، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وأما عن **التاريخ** فلقد كانت عنايةُ العلماء المسلمين باللغة والنحو والدراسات الدينية وأخبار رجالاتها قد اقترنت بل دفعت إلى الاهتمام بالكتابة التاريخية وهو نمطٌ ارتبطَ أساساً بسيرةِ الرسولِ (ﷺ) ، وانضمت إليه مادةٌ من تاريخ الرسل الذي سجلته كتبُ الطبقات ابتداءً من ابن سعد وحتى البخاري وكان جزء من الاهتمام بالكتابة التاريخية قد ارتبط بالقصص التاريخي الذي بدأه عبيد بن شريه ، واكتمل هذا القصص القديمُ على يد وهب بن عتبه وكذلك فلقد نشأ فى البصرة والكوفة اتجاهٌ يعني بتاريخ القبائل العربية وأنسابها .

هذا وقد عني مؤرخون آخرون بالكتابة في أحداثِ الدولةِ العربيةِ مثل أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (المتوفي سنة ١٥٨ هـ) الذي اعتمد على كتاباته الطبري ونصر ابن مزاحم (المتوفي سنة ٢١٢ هـ) الذي كتب في وقعة صفين ، كما كتب في تاريخ العراق منذ القرن الثالث كتابان تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور، وتاريخ الموصل لابن زكريا الأزدي .

أما في **علم الكلام**(٤٨) وهو من العلوم التي انتشرت، وازدهرت في هذا العصر . ومن أبرز الفرقِ المعتزلةِ ، وهي فرقةٌ تكلمت في التوحيد والتشبيه ، وحقائق النبوة والثواب والعقاب خالفت فيه كتاب الله وسنته ، ومن أبرز علماء الكلام من غير المعتزلة أبو الحسن الأشعرى حيثُ مالَ إلى مذهب أهل السنة .

وأما في **الفلسفة والمنطق والحكمة** فإننا نجد حنين بن إسحق المتوفي سنة ٢٦٠ هـ وأحمد بن الطيب السرفسي المتوفي سنة ٢٨٦ هـ ومن علماء الرياضة الخوارزمي ٢٥٩ وكان من أطبائه الرازي ، وابن سهل وابن ماسوية.

**الأخرى: العلوم أو الثقافات الدخيلة ونهضة الترجمة:**

لعل من أقوى الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية الاتصال المباشر بين الثقافتين العربية الخالصة ، وثقافات الأمم الأجنبية المستعربة ، وما تزخر به من معارف وأفكار وثقافات وكان هذا الاتصال منذ عصر بني أمية يسير في اتجاهين

**الأول** : طريق المشافهة مع المستعربين .

**الآخر** : اتجاه النقل والترجمة[49] الذي كان أشد تأثيراً وفاعلية من سابقه في تاريخ الثقافة العربية في العصر العباسي ، وأهم تلك الثقافات كانت اليونانية والسريانية والفارسية ، وما تزخر به من القصص والخرافات والغناء والعادات والتقاليد والأطعمة والأشربة فضلاً عن عرضها للثقافة والرياضة ، وكان كثير من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية قبل الإسلام فأدلى الفرس بدلوهم - لا في نقل ثقافتهم إلى العربية فحسب بل أيضاً في نقل الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو و" كليلة ودمنة" إلى العربية وقد زانت المكتبة العربية بهما .

هذا ولم يكن الاهتمام قاصراً على الترجمة بل تعداها إلى النقل الذي لاقي - هو الآخر - عناية شديدة فراح العباسيون ينفقون عليه الأموال الطائلة ، وكان الخليفة المنصور أول من شجع المترجمين ، فقد نقلت في عهده كتب كثيرة في الفلك والهندسة والحساب والمنطق والطب ، فهو الذي استدعى في سنة ١٤٨ هـ كبير الأطباء السريان جورجيس بن جبريل بن بختيشوع ليكون بجانبه ، وقد نقل له كتباً كثيرة من اليونانية للعربية وبخاصة كتب الطب ، وقد تعاقبت بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب .

وتنشط الترجمة في عصر الرشيد بتشجيع منه ومن وزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً وقد أذكي جذوتها - حينئذ - إنشاء بيت الحكمة ، أو خزانة الحكمة ، وهي دار عامة للكتب - فضلاً عن توظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها ، ولقد عني البرامكة عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي ، واشتهرت أسر كاملة بالقيام بنقل هذا التراث إلى العربية مثل أسرة " آل نوبخت " وخصوصاً أبا سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبي وأسرة آل

سهل ، ومترجمين آخرين ، ومن أنفس مانقلوه كتب في التاريخ الفارسي ، وفي الأدب وفي مكارم الأخلاق ، ومن مشهورها كتاب " هزار آفسانة" وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وقد نقل إبان بن عبدالحميد اللاحقي كتاب "كليلة ودمنة " إلى الشعر ، وأهداه إلى الوزير جعفر بن يحيى البرمكي ، ويقال : إنه نظمه في أربعة عشر ألف بيت

كما اهتم يحيى بن خالد البرمكي بالترجمة من الفارسية عندما جلب مجموعة من الكتب الفارسية ووكل ترجمتها إلى من يجيدون اللسانين العربي والفارسي ، كما أرسل في طلب بعض العلماء الهنود ، وعهد إليهم بالترجمة إلى العربية .

وتبلغ هذه الصحوة ذروتها أو مداها في عهد الخليفة المأمون ولد الرشيد ، إذ حول خزانة الحكمة التي أسسها والده الرشيد إلى مايشبه معهداً علمياً كبيراً ، حيث كان يضم خزانة للكتب وداراً للعلم ، وأخرى للترجمة، وألحق بها مرصداً عظيماً حيث كان ملكاً خاصاً به ، وأرسل إليه جماعة منهم الحجاج بن مطر . وكان هذا المعهد - من وجوه كثيرة - أعظم المعاهد الثقافية التي أنشئت بعد متحف الأسكندرية الذي أسس في القرن الثالث وقد جمعت له أمهات الكتب باللغة المختلفة ، وعين يحيي بن ماسوية لرئاسته وقد اشتهر من رجال بيت الحكمة عالمان الأول : حنين بن إسحق تلميذ يوحنا بن ماسوية الذي جلب من بلاد الروم طرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقي والطب ، وكان قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئاً فنقله (٥٠) أما الآخر فهو ثابت قرة الذي يعزي إليه الفضلُ في ترجمة القسم الأكبر من كتب اليونان من الرياضيات والفلك ، وبقي بيت الحكمة يؤدي رسالته على أكمل وجه حتى نهاية العصر العباسي الأول .

وجدير بالذكر أن نرى - من أبرز العلماء المسلمين الذين كانت بحوثهم في دار الحكمة والاستعانة بمرصدها - الكبير محمد بن موسى الخوارزمي وهو واحدٌ من أكبر العلماء الرياضين والفلكيين ، وقد اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذي شاع من بعده في العالم كله ، وأضاف أبحاثاً مبتكرة في الحساب عامة ، وفي حساب المثلثات خاصة ، وفي الفلك ، ولم يكن الخوارزمي وحده من نتاج هذا العصر ، بل هناك غيره

كثيرون في فروع العلم المختلفة مثل جابر بن حيان الكوفي الكيميائي.

وكانت الفلسفة والمنطق اليونانيين من بين ماتُرْجِمَ من علوم ومعارفَ ، وقد مضى العقل العربي يستسيغهما ، ويضيف إليهما إضافاتٍ باهرةً ، والمتكلمون - وعلى رأسهم المعتزلةُ - هم أهمُّ من تعمقوا في الفلسفةِ بجميع شعبها ودقائقها ، حيثُ استطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظرياتِ والآراءِ الجديدةِ التي خالفوا فيها كتابَ اللهِ وسنةَ رسوله (ﷺ) ومنهجَ السلفِ من الصحابةِ والتابعين .

ولم يكتفِ المتعلمون بكل ما أُتِيْحَ لهم أن ينهلوه من منابعِ العلمِ والمعرفة، بل لقد كانوا يذهبون إلى بادية البصرة في سوقها المعروف باسم " المربد" يلتقون فيه بفصحاء الأعراب تهذيباً وتدريباً لألسنتِهم ، وتربيةً وصقلاً لسلامة أذواقهم ، ومنهم من كان يرحل إلى أعماق البادية ؛ ليأخذَ اللغةَ والشعرَ من ينابيعهما الأصيلةِ.

وعلى هذا النحو فلقد صار العقلُ العربي عقلاً متعمقاً ، واعياً ومثقفاً، كما أصبح اللسان العربي قادراً على الإفصاح والتعبير لغةً وفناً وجدلاً ، وقد انعكسَ كلُّ ذلك في الأدبِ العربي شعراً ونثراً في هذا العصر .

ولما ننتقل إلى **العصر العباسي الثاني** فإننا سنرى ازديادَ نشاطِ الحياةِ العقليةِ على الرغم من ضعفها السياسي ؛ لزوال الفارق بين الفكر العربي والأجنبي .

وكان من مظاهر هذا أن وجدنا المعلمين لايزالون يؤدون مهامهم والمساجد لم تفتأ تمتلئ بطالبي العلم ، يتحلقون حول شيوخهم المبرزين ، وقد كانت الدولة ترتبُ لهم الرواتبَ على حسب المكانة العلمية لكلّ واحد منهم .

وتنافس الخلفاءُ والوزراءُ ، وحكام الولايات وفي مقدمتهم أسرة الصفّارين حكام سجستان ، وبنو بويهٍ حكام فارسَ ، ثم الخلفاء الفاطميون ، ومن قبلهم الولاة الطولونيون والأخشيديون حكام مصر والحمدانيون حكام حلبَ وكلهم شغفٌ بالفصاحة والبلاغة ، وذلك في تشجيع العلماء والأدباء ، حيث أغدقوا عليهم الهباتِ والعطايا ، وأجزلوا لهم الرواتبَ على مؤلفاتهم وإنتاجهم الفني ، وكان تعدد الدويلاتِ والإمارات

المستقلة مجالاً وقد تسابق أمراؤها في جذب ذوي العقول والمواهب إليهم وترغيبهم في الإقامة والتعليم في مدنهم وقصورهم ، ولم تعدْ بغداد وحدُها مركز العلم والأدب والفكر بل صارت حلب والقاهرة والقيروان – وغيرها من المدن الإسلامية– مراكزَ ثقافةٍ وعلم وفن ، ولما أصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ، وقرطبة عاصمة الخلافة الأموية نافستا بغداد في كل مظاهر الحضارة المادية والعقلية .

هذا ولقد كان من نتاج ماسبق أن رأينا ازدهار العلوم الأصيلة والدخيلة.

**فمن العلوم الأصيلة نجد العلوم اللسانية ونذكر منها:**

أولاً : استمرار ازدهار علوم اللغة في القرنين الثالث والرابع الهجريين إذ انعكس كل هذا على علوم البلاغة والنقد وبعدها استفاد الخلف من تراث السلف ، بل أضافوا إليه .. فهذا هو علي بن المغيرة الأثرم المتوفي ٢٣١ هـ ، والعباسي بن فرح الريّاشي المتوفي سنة ٢٥٧ يحملان مع غيرهما علم الأصمعي ، وكان العلماء يتفاوتون في الطريقة والمنهج فنجد منهم من يجمع اللغة بلا منهجٍ محددٍ – كما يحكي لنا ثعلبُ في مجالسه ، ومنهم من يجمع كلمات في موضوع واحد مثل كتاب " المذكر والمؤنث" لابن السكيت الكوفي المتوفي سنة ٢٤٤ هـ وكتاب" الطير " لأبي حاتم السجستاني البصري المتوفي سنة ٢٥٠ هـ ، "وجمهرة اللغة" لابن دريد المتوفي سنة ٣٢١ هـ الذي رتبه على مخارج الحروف كما أخذ العلماء يعنون بجمع دواوين الشعر القديم جمعاً علمياً دقيقاً قائماً على التوثيق والتحقيق ، وهو عمل يعد مكملاً لما نهض به كلٌّ من المفضل الضبي والأصمعي وابن الأعرابى وذلك في العصر الأول حيث كانوا يضيفون إلى الدواوين شروحاً للتوضيح ، وقد اشتهر من هؤلاء محمد بن حبيب البصري ، وثعلب الكوفي والسكري وغيرهم ، كما اهتم بعضهم بتصنيف مجموعاتٍ الاختيارات مثل جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي من علماء أواخر القرن الثالث الهجري ، وألف المُبرِّد المتوفي سنة ٢٨٥ هـ كتابه الكامل .

وقبل أن ينتهي القرنُ الرابعُ تتحدد الملامحُ ،.وتبرز السماتُ ، وتتبلور الخصائص مستقلة في اتجاهين :

**الأول** : محافظ إذ يلتزمُ بكل ما وصل إليه دون أن يعمل العقلَ في النقل ، وقد تزعمه أبو سعيد السيرافي.

**الآخر**: متحررٌ يقيس على السماع ، ويقبل الشاذ ، إن لم يرد في اللغة وتزعمه أبو علي الفارسي .....

هذا ولكل اتجاه مريدوه . ومع نهاية القرن يحدث التعمقُ والاستقلال في علوم اللغة فنجد ابن فارس المتوفي سنة ٣٩٥ يؤلف كتابه " مقاييس اللغة" الذى يعدُ خطوة رائدة ، وتطوراً غير مسبوق في كتابة المعاجم حيث استخلصَ من معاني الكلمة معنى واحداً ، أو معنيين جعلهما أساساً للكلمة ، ونص عليه ، وحين يأتي الجوهري صاحب معجم "الصحاح" نجده لأول مرة يرتبه على حسب حروف الهجاء تاركاً الكلمات المهملة ، جاعلاً الحرفَ الآخيرَ باباً ، والحرف الأول فصلاً ؛ فسهل على الناس الكشفَ عن الكلمات ، ويتبعه في ذلك علماء اللغة في القرون الثلاثة التالية كابن منظور في لسان العرب " وابن سيدة في " المحُكم"والفيروز بادي في " القاموس المحيط". ولقد اقتصر دورهم على الإحصاء والاختصار لأعمال السابقين ، وينشط علم النحو الذي حظي باهتمام العلماء وتشجيع الأمراء في هذا العصروإن كان " الكتاب" لسيبويه قد عده العلماء من بعــــده خاتمة المطـــاف في هذا العلم وكانت جهودهم تدور حول مادته تفسيراً وشرحاً .

ومن أشهر علماء النحو ابن جني المتوفي ٣٩٢ هـ ، ومن أشهر مؤلفاته : الخصائص ، وسر الصناعة والمحتسب ، والأنباري ومن أشهر مؤلفاته ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين .

**وفي الأدب**ظهرت الكتبُ التي اهتمت بالأدبِ والأدباءِ شعراءَ وكتاباً ، وقد عرضت لهم الكثير من نماذج أشعار الشعراء، وآثار الكتاب .

هذا ويعد الأغاني للأصفهاني أكثر الكتب - في هذا المجال شهرة وانتشاراً والحقيقة أن هذا الكتاب يعدُّ ذخيرة عظيمة ؛ لأنه يشتملُ على حياة العرب عامة، والبادية وصفات أهلها بخاصة ، كذلك فلقد اشتمل على أيام العرب ووقائعهم ومناقبهم ومثالبهم ، وصنعة الشعر. هذا بالإضافة إلى مئة أغنية قد اختارها إبراهيم الموصلي بتوجيه من الخليفة هارون الرشيد ، أيضاً - تيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي حيث ترجم لأدباء القرن الرابع شعراء وكتاباً مرتباً إياهم على حسب الأقطار والأقاليم ، وقد ميز المشاهير فأولاهم كثيراً من عنايته ،كما ظهرت كتب بعد ذلك اهتمت بنقد الشعر والموازنة من ذلك كتاب" الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحتري ".

وهناك نذكر "فريدة القصر، وجريدة أهل العصر" للعماد الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ وهو يعد من أكثر الكتب الأدبية قيمة ونفعاً ، وأما عن محتواه فقد جاء في عشرة أجزاء ترجم فيها لشعراء مابعد المائة الخامسة من الهجرة إلى سنة ٥٧٢ هـ .

وينعكس ازدهار اللغة والنحو والأدب على البلاغة والنقد فنجد تطوراً كبيراً وقد بدأ من القرن الثالث حين يشتد الصراع حول أبي تمام وخصومه والمتنبي وخصومه والصنعة الشعرية وعناصرها البيانية والبديعية ، ثم حول مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم ثم نجد ابن المعتز يؤلف كتابه " البديع" سنة ٢٧٤ للهجرة ، ويكتب الجاحظ مؤلفه " البيان والتبيين" ويضع كل من المرزباني المتوفي سنة ٣٨٤ هـ كتابه "الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء "وقدامة بن جعفر المتوفي سنة ٤٣٧ هـ كتابه "نقد الشعر" والآمدي المتوفي سنة ٣٧١ هـ كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحتري"وأبى بكر الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ ه كتابه "أخبار أبي تمام وعبدالعزيز الجرجاني المتوفي سنة ٣٩٢ هـ كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه " ثم يأتى عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة (٥٨١ هـ) واضع الأسس الفعلية لعلم البلاغة في صورته الأصيلة بعيداً عن التوهيمات والتعقيدات والإيهامات اللفظية ، ليصل بعلمي البلاغة والنقد إلى أتم صورة لهما ، وذلك في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ومن القرن الخامس إلى نهاية العصر تظهر كتبٌ أخرى تلخص السابق عليها أو تفصله ، وقليلاً ما تقدم جديداً مثل كتاب

"العمدة " لابن رشيق القيرواني ، ثم تبلورت آراء في مدرسة أبي يعقوب السكاكي المتوفي ٦٢٦ هـ الذي تناول علم البلاغة في جزء من كتابه مفتاح العلوم ومن أشهر تلاميذه القاضي الخطيب القزويني المتوفي عام ٧٣٩ هـ الذي صنف " تلخيص المفتاح فى المعاني " والبيان والإيضاح للتلخيص.

**وفي التاريخ** ظهر النشاط الملحوظ فيه وخصوصاً كتب التاريخ العام التي عني بها عناية كبيرة ومن أشهرهم المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن سنة ٣٤٦ هـ صاحب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ، وكان رحالة طاف بمعظم بلاد المشرق حيث ذكر فيه تاريخ الأمم البائدة إلى الخليفة العباسي الرابع والعشرين المطيع لله .. وابن مسكوية في كتابه تجارب الأمم ، وابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ صاحب كتاب "الكامل في التاريخ" حيث تحدث عن البشرية من بدء الخليقة شعوباً وحكاماً حتى تاريخ وفاته .

ثم نذهب إلى **العلوم الدينية** فنلمس استمراراً مكثفاً في نشاطها حيث نجد في التفسير اتجاهات عدة أبرزها التفسير المأثور ، والتفسير الرأي ، ويمثل الاتجاه الأول محمد بن جرير الطبري بينما يمثل الاتجاه الآخر الزمخشري في كتابه المسمى " بالكشاف" عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل حيث يعد من أنفس التفاسير وأشملها نفعاً .

وفى **الحديث** نشأ علمُ مصطلح الحديث الذي يهتمُ بدراسة الأسانيد الأحاديث ، وتراجم الرواة من التابعين ومن بعدهم في موازينَ دقيقةٍ ، وبيان أحوالهم ، وقد رتبت الأحاديث على حسب درجتها من الصحة ، ووضعوا قواعد الجرح والتعديل .

وفي **الفقه** كان العصر متمماً للعصر العباسي الأول في نساط واستفراغ المجهود في الدراسات الفقهية والتشريعية ، وظل الاجتهادُ قوياً بعد تكوين المذاهب الفقهية الأربعة بصورتها النهائية مما أتاح الفرصة لبعض المذاهبِ الفقهيةِ الأخرى .

وفي **علم الكلام** استمر المذهب الاعتزالي يبرز أعلامه وخاصة في القرن الرابع ويؤثر في أوجه النشاط العقلي والفلسفة مثل أبي علي بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي المتوفي سنة ٣٠٣ هـ وابنه عبد السلام الجبائى ٣٢١ هـ، كما ظهرت مذاهبُ كلاميةٌ

جديدة في المجتمع الإسلامي للشيعة والخوارج كما طورت أهل السنة من سياستهم ليواجهوا جدل المذاهب الأخرى ، كما أثرت الفلسفة الإغريقية في تعاليم المتكلمين وأثرت الأفلاطونية الحديثة على التصوف .

**ثانياً : العلوم الدخيلة ونهضة الترجمة:**

لقد نهضت العلوم الدخلية نهضة قوية وذلك بموجب بما توفر لها من ترجمات ، وظهور مجموعة من العلماء النابغين في كل فرع ، وفي كل تخصص وخصوصاً كتب الرياضيات والطبيعة والفلك والطب . فمن كبار الأطباء سنان بن ثابت بن قرّة الذي أسلم على يد الخليفة القاهر بالله وعاش حتى سنة ٣٣١ هـ حيثُ أدار مارستانات بغداد كلها هذا بجانب طبيب المسلمين الأول الرازي ، الذي اشتغل بالكيمياء والطب ، ثم جاء بعده الفيلسوف الطبيب ابن سينا المتوفي ٤٢٥ هـ الذى أحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب وترجم كتابه " القانون" في الطب إلى اللغة اللاتينية وأصبح الكتاب العمدة في كليات أوروبا الطبية حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وبذلك امتزجت آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق بالأراء الإسلامية . إن من أشهر من عنى بالفلسفة رجالُ جمعيةِ " إخوان الصفا "حيث ألفوا خمسين رسالة في مختلف فروع الفلسفة النظرية والتطبيق .

وحين نقترب من نهاية هذا العصر نجد أن القدرة على الابتكار والتجديد قد نضبت مع تغلغل العنصرين – الفارسي الذي راح يتعصب للغته وثقافته معرضاً عن لغة العرب وثقافتهم ، فبنو فارس أخذوا يتعصبون للغاتهم وثقافتهم وأعرض كثير منهم عن التثقف بالثقافة العربية مثل بني بويه فاستعجم الولاة والأمراء وكذلك فعل عنصر الترك في علم وأدب الأدباء.

هذا ولم تعدْ الترجمةُ تمتلئ بالصعوباتِ اللفظيةِ-كما كانت في العصر العباسي الأول -بل أصبحت ترجمةً دقيقةً وواعيةً بالمعنى المرادِ من النصوصِ ، وهذا هو السر في إعادة ترجمةِ بعضِ الكتبِ التي نقلت إلى العربيةِ في العصر الأول،ولعل هذا راجع لأسباب أهمها:التشجيع الذي يلقاه المترجمون ، ويكفي أن نذكر أن الخليفة المتوكل أهدى إلى

حُنين بن إسحق المتوفي سنة ٢٦٤ هـ، المترجم المشهور ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث الفاخر والكتب الكثيرة وأقطعة بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً قدره خمسة عشر ألف درهم ، غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلع والإقطاعات .

وكان حُنين شغوفاً بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس الطبيب اليوناني القديم عشرات من كتبه نقلها عن اليونانية والسريانية ، ومن أشهر المترجمين أيضاً ثابت بن قُرّة المتوفي سنة ٢٨٨ هـ ومن أهم ماترجمه كتاب " الأصول" لإقليدس ، وكتاب أرسطو في النبات ، كما ترجم أبو بشر مَتّى بن يونس جميع آثار أرسطو في المنطق وغيره ،ومن أهمها كتاب الشعر الذي أثر تأثيراً كبيراً في النقد العربي وخاصة عند قدامة بن جعفر في كتابه " نقد الشعر".

ولذلك نأتي إلى القرن السابع الهجري فنجد خمود ذلك النشاط العلمي العظيم . كما لا يفوتنا القول بأن التتار على العالم الإسلامى هجوماً مخرباً ، فهم قوم لم ترق بهم حضارة ، ولم تهذبهم ثقافة ، وحين تمكن هولاكو من الاستيلاء على بغداد أباحها أربعين يوماً لجنوده ، فقتلوا آلافاً من سكانها وخربوا عمرانها ورموا كتبها في نهر دجلة، لذلك انتقلت الحركة العلمية إلى شمال أفريقيا وخاصة في مصر ، وفي هذا المكان من العالم الإسلامي الذي حماه الله من تخريب التتار قام العلماء بتجميع التراث في موسوعات ضخمة ، وكأنهم يريدون حفظ مابقي منه من اغتيال الزمن بأحداثه ، فهذا الأبيوردي الشاعر (توفي سنة ٥٥٧ هـ) يؤلف في طبقات العلوم ، ويفرد لكل علم طبقة وألف النويري المتوفي سنة ٧٣٢ هـ . كتابه " نهاية الأرب" وجعله في ثلاثين مجلداً وألف فضل الله العمري – وكان معاصراً للنويري – موسوعته التاريخية الجغرافية " مسالك الأبصار" وألف القلقشندي موسوعته "صبح الأعشى" في الكتابة والكتاب ، وألف الدميري المتوفي سنة ٨٠٨ هـ كتاب الموسوعي " حياة الحيوان".ولا شك أنه بالرغم من أن تلك الموسوعات لم تأت بجديد مبتكر في المعارف المختلفة ، فقد حافظت على كثير من تراثنا الذي كانت ستقضي عليه مصائب الدهر وحدثانه .

## هوامش ومصادر: مقدمة في المنهج

١- على رأس هؤلاء أبو مسلم الخرساني الذي انضم مع من انضم إليهم من العرب حيثُ خرجوا جميعاً للقضاء على مروان بن محمد - آخر الخلفاء الأمويين ، لما التقوا به على نهر الزاب ، شمالي العراق ، وهزموه هزيمةً ساحقةً ، ففر إلى الشام ، ثم إلى مصر ، ومكث بها ، حتى لقي حتفه ، وذلك في أواخر ١٣٢٠ هـ ، وانتهت بذلك الخلافة الأموية ، وقامت خلافة العباسيين .

٢- انظر : العصر العباسي الأول لعبدالمنعم ماجد ط ٢ جـ ١ ص ٤٠ - الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩ م نقلاً عن مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ ٣ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٣- : لأنهم وعدوا أهلها بأنهم لايتخلون عنها على أساس أنها كانت الحصن الحصين لآل البيت منذ أيام الراشدين ؛ ولذلك اعتبرت حرماً بعد مكة والمدينة.

٤- راجع : العصر الذهبي للأدب العربي في العصرين الأول والثاني العباسيين لمحمد عبدالمنعم العربي ص ٩ .

٥- سبق أن قلنا في كتابنا ( دراسات في الأدب الأموي) أنهم هم الذين سفكوا الدماء بغير الحق ، وظلموا الرعيةَ ، وجمعوا الأموالَ ، وكانت مقدرات الأمور تحت سيطرتهم.

٦- لعل المقصود بالدعاة : الذين بُعث بهم إلى شتى أنحاء البلاد منها ما توجه إلى خرسان فطرد على أثرها ولاة بني أمية ، واستمرت حتى أقصت الدولة الأموية تماماً عن الساحة القيادية وقد حلت محلها .

٧- راجع : الدولة العباسية - قيامها وسقوطها لحسن خليفة ط ١ ص ٤٥ ، المطبعة الحديثة ، القاهرة ١٩٣١ م .

٨- : لأن الخلافة العباسية في اعتقاده خلافة أبدية طالما أنه أوجَد لها ما يبررُ ذلك إذ ربطها بالعقيدة .

٩- راجع : العصر العباسي الأول لعبدالمنعم ماجد ط ٢ جـ ١ ص ٩٨ حيثُ يرى أن أبا جعفر المنصور أوجد لها اسماً عربياً خالصاً رسمياً في المكاتبات ، والعملة ألا وهو مدينه ، أو دار السلام وذلك ؛ لأن وادي دجلة كان يقال له وادي السلام ، أو لأن السلام من أسماء الله ، والمدنُ كلُّها لله ، وقد يكون تفائل بالسلامة وسميت المنصورية نسبةً للمنصور بانيها .

١٠- راجع : تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ ١٠ ص ٢٠٦ (في تحديد مفهوم السنة) المطبعة

الحسينية المصرية القاهرة ١٣٢٦ هـ .

١١- راجع : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦٤ القاهرة ١٩٦٥ م

١٢- انظر : الدولة العباسية - قيامها وسقوطها لحسن خليفة ص ٢٤٩ .

١٣- سورة : طه ، الآتيان : ٢٩ ، ٣٠

١٤- راجع : العصر العباسي الأول لعبد المنعم ماجد جـ ١ ص ٣١١ "

١٥- هي ثورةٌ شعبية ، أو انتفاضة ؛ وحرب شعواء ، ظهرت في شرق البلاد الإسلامية ، وقد دامت أربع عشرة سنة ، وأربعة أشهر ، وستة أيام بين جيوش العباسيين ، والزنج ، زعيمها علي بن محمد الذي رفع نسبه إلى علي بن أبي طالب ، وفاطمة البتول ، استقام أول أمرها ، وانحرف مسارها ، فصار أصحابها مفسدين في الأرض ومخربين .

والواضح أن هذه الثورة كانت سخطاً على بني العباس وسياستهم الظالمة لسواد الشعب ،ولأبناء عموميتهم ، واعتمادهم على الأتراك دون الأصفياء من العرب

١٦- هي حركة ثوريةٌ ظهرت في بلاد الشام حيثُ دمشق وضبرية ، وحلب وحمص وحماة ومعرة النعمان حيثُ كان لهم أكثرُ من زعيم كان من رؤسائهم أبو الفوارس.

١٧- يقال إن المعتصم قد بني لهم مدينة (سامراء) شمالي بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة الخلافة إلى أواخر عهد الخليفة المعتمد سنة ٢٧٦ هـ .

١٨- السلاجقة أسرة ،أو مجموعة قبائل تركية - عرفت باسم (الغز) كانت تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين ، وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون - نسبوا إلى جد لهم اسمه (سلجوق بن دقاق) الذي اتسم بالعدل والشجاعة والأمانة حيثُ جمع شملها ووحدتها تحت زعامتها وقد نزل بها أرض الإسلام ...

راجع :الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٩ ص ١٦٧ .

١٩-انظر : المصدر نفسه ص ١٥

٢٠- انظر : محنة الإسلام الكبرى - أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول . تأليف دكتور مصطفى طه ط ٥ ص ٤ مطبعة الكتاب الثقافي الدولي سنة ١٩٤٧ م .

٢١- السامانيون ينتسبون إلى إحدى أسر الفرس العريقة ظهر أول أمرهم في عهد الخليفة المأمون وقد نالت حظوة عنده ، حيث كانت العلاقة بينهم وبين العباسيين تقوم على المودة حتى إن الخلافة العباسية اعتمدت عليهم في إقرار سلطانها في بلاد المشرق ، وضرب المارقين على طاعة الخلافة .

٢٢- مزيداً من التوضيح راجع : الأدب في ظل بني بويه لمحمود الزهيري ص ١٥-٣٠ مطبعة

الأمانة سنة ١٩٤٩ م نقلاً عن ابن الأثير ح ٦ ص ١٤٦ والنجوم الزاهرة ح ٣ ص ١٨٥ .

٢٣- سميت بذلك نسبة إلى عاصمتها غزنة ، ويرجع ظهورها إلى أحد المغامرين المسلمين المسمى "سبكتكين" حيث ظهرت في المجال الإسلامي ظهوراً قوياً في عهد محمود الغزنوي الذي نشر الإسلام في رقعة العالم الإسلامي ، وهي تعد أول انتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة الفعلية للإسلام .

٢٤- العنصر الأخشيدي هو عنصر دخيل على الحياة الإسلامية في مصر حيث كانوا يعبرون عن حركة مصرية قومية واضحة ، ظهرت على يد محمد بن طغج الإخشيد التركي الذي جاء ليخلص مصر من الفتن الداخلية وقد تصدت للحملات الفاطمية وقد ردها بنجاح ، وقد كان مرهوب الجانب عند الروم لأنه استخدم السياسة والقوة مع خصومه حيث كانت سياسته في بلاده ترمي إلى تأليف قلوب الرعية ، وجمعهم على الطاعة ، وإقرار الأمن والدعة في المعيشة . راجع: صبح الأعشى ح٧ ص ١٠ .

٢٥- ظهرت بنجاح جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي في الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ وباستيلاء الفاطميين على مصر وتقدمهم للشام حيث انقسم العالم الإسلامي قسمين

الأول : الشرقي تحكمه الخلافة العباسية وقاعدته العراق

- الآخر :الغربي تحكمه الخلافة الفاطمية ، وقاعدته القاهرة التي أنشأها الفاطميون بعدها ودخولهم مصر بقليل .

٢٦- ظهرت في عهد الخليفة المعتضد ثائرة على الدولة العباسية بقيادة الحسين بن حمدان على هارن الشاري . هذا ولقد استفادت الخلافة من قيام بني حمدان كقوة عربية للقضاء على المناهضين لها وخصوصاً القرامطة والأتراك وأشهر خلفاء بني حمدان أبو المحاسن علي بن عبدالله الذي لقب بـ (سيف) الدولة هذا ولقد انشعبت الدولة الحمدانية شعبتين إمارة الموصل وعليها الحسن بن عبدالله : أمير الدولة ، وإمارة حلب وعليها علي بن عبدالله سيف الدولة

٢٧- هي قوة تابعة لسلاطين السلاجقة برزت على حسابهم حين ضعفوا وخصوصاً بعدما مات السلطان مسعود حيث صار السلاطين أدوات في أيديهم يأتمرون بأمرهم ، وينفذون رغباتهم . هذا ولقد تميز هذا العصر الأخير من حكم السلاجقة بأسماء عدد من الأتابكة أشهرهم أيلدكز أتابك آذربيجان الذي سيطر على أمور السلطة السلجوقية في العراق، وصار هو الحاكم الفعلي حتى توفى سنة ٥٦٨ ومازال الأتابكة يسيطرون على الدولة حتى كانت نهايتها على يد حكام خوارزم . راجع : راحة الصدور وآية الصدور للراوندي ، ترجمة الشواربي ص ٣٢

٢٨- الدولة الأيوبية نسبه إلى أيوب ، وهو أبن مروان بن شادي ، أختلف في أصلهم فمنهم من قال : إنهم من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف - يعني آخر خلفاء بني أمية ، ومنهم من يرى أنهم من أصل كردي ، كان موطنهم الأصلي بقرية " دوين " ثم حدث أن غادره كل من شادي وأيوب إلى بغداد ، وذلك سنة ٥٢٥ هـ . راجع : قيام الدولة الأيوبية في مصر تأليف علي بيومي ط ١ ص ٦٣ دار الفكر الحديث سنة ١٩٥٢ م .

٢٩- دولة المماليك : نسبة إلى طبقة المماليك فسميت الدولة التركية ؛ لأن أغلب المماليك ترك الأصل ، قامت في مصر في العصور الوسطى من ٦٤٨ إلى ٩٢٣ هـ أي زهاء ثلاثة قرون إلى وقت مجيء العثمانيين ، وهي فترة تطورت خلالها النظم السياسية والاجتماعية تطوراً كبيراً علماً بأن طبقتها كانت عسكرية، حيث كان من نظامها أن يكون حكامها وجيشها من الرقيق ، وهو نظام لايقوم إلا في ظل الإسلام .. راجع : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر للدكتور عبدالمنعم ماجد ص ٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م .

٣٠- انظر : الدولة العباسية لحسن خليفة ص ٢٥٣ .

٣١- انظر : تاريخ التمدن الإسلامي لجورج زيدان جـ ٢ ص ٣١ ، تعليق حسين مؤنس دار الهلال - بدون تاريخ .

٣٢- انظر : العالم الإسلامي في العصر العباسي للعالمين د. أحمد إبراهيم ود. حسن أحمد ط ٣ ص ١٩٥ - دار الفكر العربي - سنة ١٩٧٧ م .

٣٣- انظر : الشعر العباسي ليوسف خليف ص ٢٥ دار غريب .

٣٤- انظر : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٥٥ .

٣٥- انظر : القصيدة العباسية قضايا واتجاهات لعبدالله التطاوي ص ١٢٩ غريب سنة ١٩٧٧ م

٣٦- انظر : المصدر نفسه ١٣٧

٣٧- كانت زهرةً للعالم ، وكعبةً للطلاب ، وسوقاً يقصدها الطلاب من كل حدب وصوب وكثرت فيها دور الكتب ، وكان لبائعي الكتب منزلةٌ خاصة ، وكانت مكتباتهم أندية لطلاب العلم .

٣٨- كان الإيرانيون هؤلاء طليعة حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية نذكر من هؤلاء الفضل بن سهل ، وسهل بن هارون ، وموسى بن سيار الأسواري الذي قال عنه الجاحظ : إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ..." راجع : البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٩ .

٣٩- راجع : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢٤٣ .

٤٠- راجع : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢٤٦ .

٤١- من هؤلاء أبو زياد الكلابي الذي ألف كتاب " النوادر ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان

٤٢-راجع : وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٥٥٠ .

٤٣-انظر : معجم الأدباء جـ ٦ ص ٥٦ ... هذا بالإضافة إلى جمع اللغة الذي مر بمراحل ثلاث معتمداً على الجمع والاستقصاء ، ثم جمع الكلمات حيثما اتفقت وكذلك الكلمات المتعلقة بموضوع واحد ، ثم وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص .

٤٤- انظر : المدخل إلى علم النحو والصرف لعبدالعزيز عتيق ص ٢٣ دار النهضة العربية .

٤٥- لقد قصد مؤلفه من ورائه الوقوف على الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير بعدما صعب على إبراهيم بن اسماعيل فهم التشبيه فيها ، وكان ذلك في مجلس الفضل بن الربيع سنة ١٨٨ هـ وهي قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ " سورة الصافات آية ٦٥ . وقد صارت تلك الإشارات أو الملاحظات التي تطورت مع تطور الحياة العقلية والحضارية فيما بعد أبواباً في علم البلاغة .

٤٦- لم تقتصر جهوده على التأليف الأدبي بل إن كتاباته -كل ما ترجم - تعد الإشارات الأولى في التأليف البلاغي .

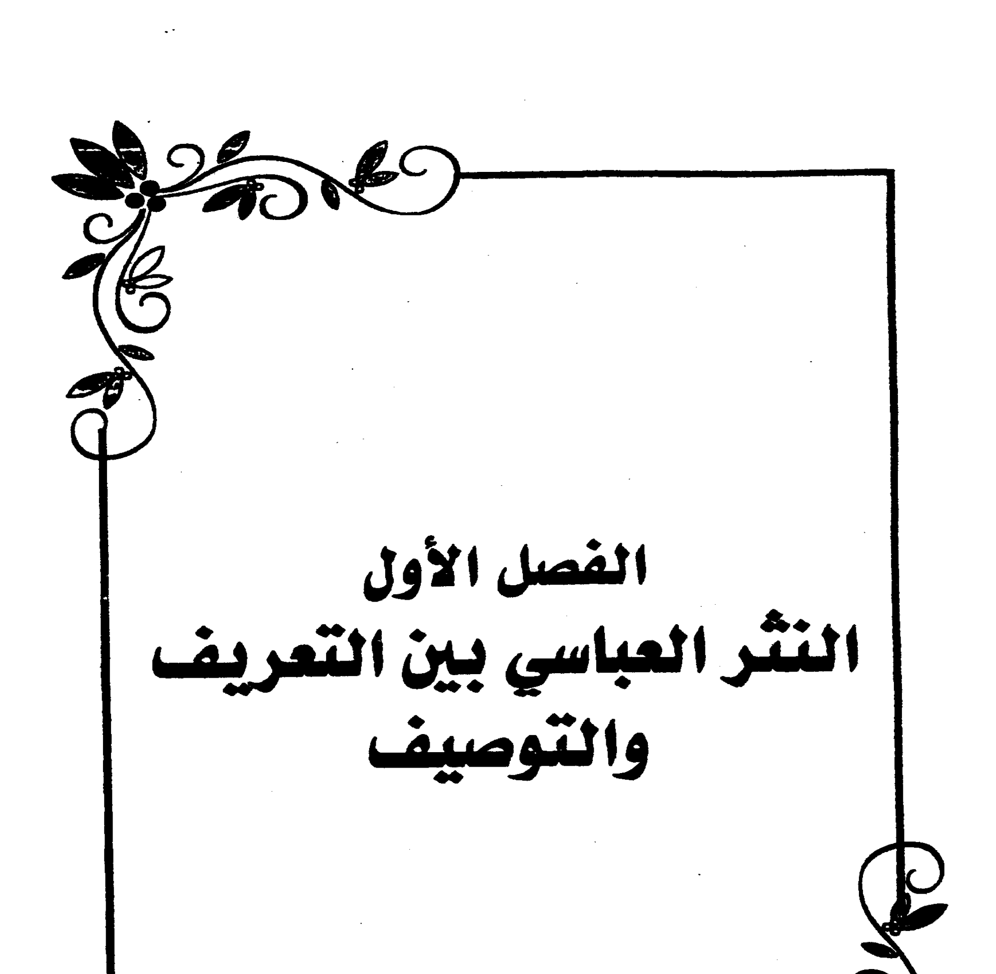
٤٧- راجع : ضحى الإسلام د أحمد أمين جـ ١ ص ٢٠٠

٤٨- هو علم يراد به الجدل ، ومناقشة أصول العقيدة عند جميع الملل والنحل .

٤٩- من أهم الدوافع التي ساعدت على ازدهار حركة الترجمة نمو العلاقات الدولية في العصر العباسي الأول ، والجهود التى بذلها العباسيون في فرض الإسلام والمبادلات التجارية التي وصلت إلى الذروة في عهدهم ، والتي حملت التجار إلى كل سوق ، ودفعت السفن العربية في كل بحر وقد كانت الدولة العباسية تعقد الصفقات لشراء الكتب ، وتدفع في سبيلها أغلى الأثمان . وقد بدأت هذه الصفقات في عهد المنصور .

راجع : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٢٦٧ ، نقلاً عن مقدمة بن خلدون ص ٤٠١ .

٥٠- راجع : الفهرست لابن النديم ص ٣٣٩ - ٣٤٠



# الفصل الأول

# النثر العباسي بين التعريف والتوصيف

الذي لا مطعن فيه هو أن النثر العربى قد نهض نهضة قوية ، خطا على إثرها خطوات واسعة نحو الكمال ، فسما بالعقلية العربية سمواً يتناسب مع مكانتها لتحلق فى آفاق المعرفة ،وذلك فى العصر العباسي الأول ..

هذاويمكننا إرجاع هذه النهضة إلى عدة أسباب منها ماهو مباشر ، ومنها ماهو غير مباشر ..

فأما عن الأسباب المباشرة فإنه يمكن حصرها فيما يلى :-

● **أولاً:** تعربُ أغلب شعوب الشرق الأوسط ، وانتقالهم إلى العربية حاملين معهم أبرزَ مايميزُ ملامحهم الفكرية والثقافية ، وخصوصاً ماورثوه من فنون العلم والمعرفة ، هذا بالإضافة إلى عاداتهم وتقاليدهم ، وأعرافهم ومثلهم ، وطرائقهم فى المعيشة .. وقد اتخذوا العربية لسانَهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وأظهروا في ذلك براعةً منقطعة النظير "(١).

وطبيعى أن ينشأ امتزاجٌ بين هؤلاء ، والأمة العربية ، الأمر الذي نتج عنه ظهورُ مجتمعٍ مدني فى تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، قوامُه مزيجٌ - وقد انصهرُ انصهاراً متكافئاً - من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ، ومن الأدبِ العربي بقسميه الشعرِ والنثرِ ، ومن ألوان الحياة العملية والمادية في المحيط العربي الجديد..

**ثانياً:** تمثيلاً على ماسبق وضّح عبدالله بن المقفع ذلك عندما فسّر البلاغة تفسيراً يتسمُ بالعقلانية فيجعلها أقساماً في الصمتِ والاستماع ،والإشارة ،والكلام ثم يضعُ مكانةَ أنواعه وهي الاحتجاج ،أو المناظرة والجدل،والجواب في الحديث والشعرِ والكلام المسجوع،والخطب والرسائل ويطلب في جميع ذلك الإيجاز "(٢).

ولعله هنا يميل إلى الدقة ، وشدة التركيز اللذين يُحدثان في الكلام نوعاً من الأسر بحيثُ يصيب المتكلم هدفه مباشرة ، ثم يتطرق إلى قواعد بلاغية مهمة منها براعة الاستهلال والإيجاز والإطناب ، وفصاحة الكلام وجريانه على النحو العربي ، وكل مايعنى بحسن صياغة النثر العربي.

**ثالثاً:** تفصيلاً لما سبق فإن جلَّ الشعراء والكتاب والباحثين والرواة وأصحاب الفكر ، وحملة لواء البيان في هذا العصر - كانوا من الفرس والموالي ، وقلما نجدُ شاعراً فحلاً ، أو عالماً مرموقاً ، أو فيلسوفاً حكيماً ، أو مفسراً لكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) إلاَّ وهو منحدرٌ من أصلٍ غيرِ عربي ... ! وهذا لايعني تأخر العرب عن غيرهم ، فالعربي طموحٌ أبيٌّ ، ودينه الإسلامي يحثُّه على التقدم والعلو ، وطلب العلم سواءٌ أكان دينياً أم دنيوياً..

لكن هؤلاء الأعاجم يريدون - كما يبدو لي - أن يقدموا خطاباً معرفياً تأسيساً ، وخارطة فكرية كشفية كمحاولة لإيمان العرب بقدراتهم ثم سعياً نحو تأصيل مفهوم المساواة ، وأملاً في أن يكون لهم دور بارزٌ ، أو ملمحٌ واضح في تسيير الحركتين الفكرية والثقافية .

إذن فإن مركب النقص الذي كان ينتابُ هؤلاء (الدخلاء هو الذي دفعهم بقوة إلى أن يبرزوا على غيرهم ، وبخاصةٍ في مجال العلم الذي كان شفيعاً للمناصب الرفيعة،والمراكز الكبيرة دون تفرقةٍ بين عربيٍّ ، وغير عربي .(٣)

● **رابعاً:** نتيجةً لما سبق فلقد امتزجت الثقافة العربية "بثقافات الأمم المفتوحة . من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، حيثُ تحولت إلى العربية دون حاجة إلى

فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافاتهم إلفاً وسلوكاً وعادةً ، وأن لاتنتظر حتى ينظَّمَ لها النقل والترجمة ، ( وأولُ هذه الثقافات التي تطالعنا الثقافة الهندية التي وصلت إلى العرب حينئذٍ عن طريقين :

**الأول** : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم

**الآخر:** يتمثل فيمن دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندمجوا في عرب العراق .. ومعروف أن جمهور الهنود في ذلك الحين لم يكونوا على ملة واحدةٍ . إذ كان منهم وثنيون ، ومنهم براهمة ينكرون النبوات ، ودهريون لايؤمنون بشئ سوى الدهر ، وَسُمَنِيَّة لايؤمنون بشئ سوى الحسِّ وقد ناظرهم - قديماً - جهم بن صفوان ..)(٤)

عوداً فإن الثقافة الفارسية أثرت على العقل العربي أعظم التأثير ، لا سيما جُمهور الفرس الذي دخل في الإسلام ، وقد أخذ عنهم العرب كثيراً من أنماط حياتهم سواءً في الأطعمة والّلهو ، أو في عاداتهم ، وتقاليدهم ، أو في تراثهم القصصي ، وأخيراً الثقافة اليونانية فإنها قد لعبت دوراً بارزاً على مسرح الحياة العربية والعباسية

**خامساً:** الرقي الفكري والعلمي الذي اتسعت مجالاتُه في هذا العصر عن طريق مجالس العلمَ سواءً أكانت في أسواق البادية مثل سوق المربد [٥] الذى كان نبعاً صافياً لشباب البصرة حيثُ كان يغدون عليه للقاء الخصماء ، والبلغاء من الأعراب ، والتحدث معهم تدريباً لألسنتهم ، وتربيةً لأذواقهم أم المساجد الكبرى حيثُ كانت ساحات العلم الكبرى ،والمعاهد العظمى لتعليم الشباب الذين تحلّقوا حول أساتذتهم ، فكتبوا ماألقي عليهم ..

وكان لكل فرع من فروع العلم والمعرفة حلقتُه أو حلقاتُه الخاصةُ .: هذا بالإضافة لحركة النقل والترجمة التى ازدهرت ازدهاراً كبيراً لاسيما في عصر الرشيد ووزرائه (البرامكة) [٦] الذين شجعوا على نقل أنفس ذخائر الهندية

المتفلسف إحدى ثمارها

**سادساً:** تشجيعُ الخلفاء والأمراء للأدباء حيثُ كانوا يغدقون عليهم ، بل كانوا كثيراً مايصبغون عليهم عطاياهم الجزيلة ، هذا ويعد المهدي أولَ من جعل هذا شرعةً وتقليداً ومنهاجاً حيث إنه أكثر من مكافآته للعلماء إكثاراً أغرى الكثيرين منهم إغراءً جعلهم يشدون إليهم الرحال من كل حدب وصوب ...!!

**سابعاً:** رغبة الكثيرين من العباسيين في اقتناء الكتب ، وخصوصاً المترجمةَ التي حملت بين أطوائها - كنوزَ المعارف ، والثقافات الأجنبية الكثيرة حتى صارت مادةً أساسيةً للمعرفة آنذاك - هذا بالإضافة إلى صناعة الورق ، واستخدامه إذ أخذ ينتشرُ مع بداية هذا العصر وقد كان الأدباء - من قبلُ - يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي كل هذا أدى إلى إفشاء الكتابة وإتساعها ، وكان من ثمار هذا أن ظهرت المصنفاتُ الكثيرةُ.

**ثامناً:** تفهمُ العرب ، وتدارسهم للقصص القرآني الذي جاء به القرآنُ الكريم منذُ أن ظهر لكونه أسمى وأرقى نماذج الكتابة الفنية البليغة المتضمنة لكثيرٍ من الأحوال الاجتماعية والعقائدية والفكرية والتاريخية كقصص فرعون ، وموسى ، وإبراهيم ، ويوسف ، وعيسى ابن مريم ، وأصحاب الكهف .. كل هذا كان له أثره الواضحُ على النثر مضافاً إليها ظهورُ بعض القصص التي نقلت عن الهندية والفارسية ..

**تاسعاً:** ظهر عنصر -كان له الأهميةُ الكبرى في ازدهار الحركة الأدبية لاسيما النثرِ في هذا العصر ، ذلك - هو عنصرُ الجواري المغنيات. فإنهن - إلى جانب كونهن صاحبات فنٍ من الفنون الجميلة التي لها أثر في تهذيب الإحساس ، وتقويم الذوق ، وصقل الذهن - كنَّ مع هذا أديبات ، يحذقْن القول ، ويجدن التأليف وكثيراً مايتحدث كتابُ الأغاني عن هؤلاء أُحاديث تضعهن على قمة المجد ، وترقى بهن إلى أعلى مراتب الزعامة في أي فن أو ضربٍ من ضروبِ المعرفة .

**عاشراً:** عنايةُ المعتزلة والمتكلمين عناية فائقةً بمعرفة الأصول وخصوصاً مسائل البيان والبلاغة التي تقوم عليه براعة القول حيثُ كانت صناعته تقوم على إجادة في [illegible]

يعظون الناس وذلك في بحث اصول المسائل الدينية والعقيدية ومايتصل به من المبادئ الفلسفية نحو العلومِ والمعارف الإسلامية وقريباً من هذا كان واقع بين عمرو بن عُبَيْدْ تلميذ أبي الحسن البصري . وواصل بن عطاء الذي تفوق على مناظِره وذلك بما أُوتي من دقةٍ في الحكم على مرتكب الكبيرة ، وبما منح من مهارة في الإقناع ، وقوة في الحجج ، ووضوح ودقة في العبارة ومهارة في الفنون التي رفدت هذا النوع من الأدب بما منحته من سمات خاصة تفرد بها عن تلك الآداب التي امتزجت به حيثُ استطاع هؤلاء أن يطوعوا النثر فجعلوا منه قالباً تنصهرُ فيه تلك الآداب والعلوم والمعارف حتى أصبحَ أدباً جديداً ذا طابعٍ خاصٍ يتسمُ بالمرونة والطواعية في استيعاب كلّ مايصبُ فيه ؛ ليصاغ صياغةً جديدةً..

وأما عن **الأسباب غير المباشرة** فيمكنُ رصدُها فيما يلي:-

**أولاً:** إنّ أغلب أدباءِ هذا العصرِ وجدوا أنه ليس في استطاعة الشعر أن يمضي في تسجيل الملاحظة الموضوعية لكل مايخص التطور الحاصل حيث إنه مرتبط بأوزان وقوافٍ ؛ لذا كانت الكتابةُ ضرورةً ملحةً ، وباعثاً مُلهِماً لتفي بتلك المتطلبات ، وتستوعب كلّ المتغيرات وتحقق ماعجز الشعر عن تسجيله. فشؤون الشعر – كما يرى الدكتور مصطفى ناصف [٧] – "لاتسمح بتقصي أحوال الخصي والخصاء ، وماكان من أمره ، وانتقاله من شعب إلى شعب . فالوعي الاجتماعي يغيبُ عنا مادمنا مشددين بحبال الشعر ؛ ولأن الجاحظ كان يدرك بحساسيةِ الناقد الولع الشديد بالشعر والشعراء ، وما عليه فقد قدم كتاب " الحيوان " محاولةً ناضجةً ورائدةً ليصبحَ نافذةً تطلعُ منها على شؤون المجتمع . وعلاقاته المتنوعةِ والمتعارضة.

على هذا التصورِ يمكننا أن نلاحظ أن الانتقال من ثقافة الشعر إلى ثقافة الكتابة في هذا العصرقد طوت شيئاً – ليس بالهين – من إهمال فكرة هذا النموذج والبطولة ، وقبول المعايير والتوسط والجمع بين الفضائل والرذائل في سياق واحد إذ أن الخروج من ثقافة الشعر إلى ثقافة الكتابة هو خروج إلى الصناعات والانفتاح على مجمل الثقافات ، ورصد لكل العادات وخروج – عوداً – من عالم التعظيم والمثالية إلى ميدان الملاحظة الموضوعية والواقعية للتطور الحاصل وقتذاك.

- **ثانياً:** أن الأدب –كما يرى الدكتور مصطفى الشكعة –[٨] كان في خدمة الدولة والشعبِ معاً ، ونحن نشايع هذا الرأي ؛ لأن علاقةَ التكامل التضامنية القائمة – على المَنعة – بين الشعبِ والحكومةِ قد أفرزت – بكل ملابساتها – نوعين من النثر كانا بمثابة أداة إيصالٍ ، وتلاحمٍ وتفاهمٍ بين اللازم والملزوم لم تكن موجودة من قبل بوضوح .... هذان **النوعان** هما :

**الأول:** الرسائل الديوانية وتكتبُ لقضاءِ مصلحةٍ كالرسائل المتبادلة بين الحكومات وبين الشركات وعملائها ..

**الآخر:** التوقيعات . وهي التأشيراتُ الموجزةُ التي تحملُ من المعنى مايدلُّ على رأي كاتبها فيما يعرضُ عليه من أمر ....

على كلّ ٍ فلقد كانَ الأدباءُ - جميعاً وغيرهم - يُسخِّرون أقلامهم فى خدمة الدولة، ويضعون ثمار قرائحهم في خدمة الخلفاء العباسيين ، الذين كان أكثرهم على جانبٍ كبيرٍ من الثقافة الأدبية والفكرية والدينية ، والإسهام فى تثقيف الناس وتعليمهم لقد كان المنصور والمأمون مثلاً من أنطق الناس ، بل إن خليفةً - كالمنصور- كان يسهم بنفسه في تأديب صغار الكتاب في ديوانه " (٩)

- **ثالثاً:** أن الإبحار في علم الفلسفة قد أذكى العقلية العربية بعد أن أرفدها بوافر الغلات من العلوم ، والمعارف العلمية والثقافات ، ثم حللها ووجهها فمضى العقل العربى يهضمها ، ويضيف إليها علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ماأضاف الخوارزمي في علم الجبر ، وكان هذا العقلُ قد أظهرَ نضجه العلمي ، وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجلياً في العلومِ اللغويةِ ، والدينية ، ومباحث التاريخ ، وعلمِ الكلام [illegible]
- **رابعاً:** امتثالاً لعاملي النشوء والا[illegible] [illegible] على أنساق العرف ، واتباعاً لف[illegible] الحياة لابدَ أن يتطور النثر تطور، و[illegible]
التي لاتحصي حيث جاء النثر إحدى ثمارها المرجوة ونتيجه هذا كله فلقد :

١- تلقفَ الكتابُ المثقفون كلُّ ماكان يدورُ في بيئتهم من ثقافاتٍ مختلفةٍ دينية وفلسفية وأدبية وكلامية وعلمية وإسلامية وأجنبية.

٢- حاولوا معرفةَ الأسس القوية التي تمكنهم من إظهار الكلام بليغاً ولذلك راحوا يكتبون عن البلاغة،والأسس التي تقوم عليها كما ورد في رسالة بشر بن المعتمر (١٠)

٣- اتسم النثر بجملةٍ من الخصائصِ الفنيةِ نوجزُها فيما يلي :

**من حيث الألفاظ والعبارات**

* هجر الكتابُ الألفاظ البدوية الجافة الوعرةَ التى تنبو على ذوق أهل الحاضرة مع العناية بفصاحة اللفظِ ، وجزالته والتأنق فى اختياره ؛ لتتحقق الملاءمة الدقيقة بين

الكلمة وأختها فى الجرس الصوتى داخل الإطار الجمالي المهيأ لها ، والحرص على التعبير الموجز في مواضعَ ، والمطْنَب فى مواضع أخرى حسبما يقتضيه الحال ، أو كما سُمى مطابقة الكلام لمقتضى الحال حيث حرصوا على استخدام الألفاظ المحددة البيئة التي تفي بمعانيها ، وتؤديها أداءً سليماً دون زيادة أو نقص .

هذا ولايفوتنا القول : إننا لمسنا بعض الألفاظ المعربة المنقولة عن الأجنبية ، وهذا إفراز طبيعي - أي جاء مخاضاً طبيعياً - ؛ بسبب التمازج والتلاقح و.. أما عن العبارات فلقد جاءت قويةً وجزلةً ومحكمة ، حيث ظهر فيها التنوعُ بين الإيجاز كالتوقيعات والمساواة ، والإطناب كما في الرسائل ، كذلك ظهرَ الاستشهادُ بالقرآن الكريم والحديث الشريف والاقتباس أمّا من حيثُ استخدامهم للبديع فقد ظهرَ غير متكلف حيثُ جاءَ لتكوين الفكرة لا لتلوينها .

**من حيث المعانى والأفكار :-**

لقد جاءت الأفكار دقيقةً عميقةً متسلسلةً وقد غلب عليها الترتيب المنطقي عن طريق استخدام الحجج العقلية ، والبراهين المنطقية التى ألفتها آذانهم فصارت لاترضى بغيرها ولا تقنع بسواها بديلاً " من ذلك ماكتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهو : أما بعد فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب فى الولاية والخدمة ، بمفارقته عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين لقول الله فيما قص علينا من نوح وابنه «**إنه ليسَ من أهلكَ * إنّهُ عملٌ غيرُ صالحٍ** » ولا طاعة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ماكانت القطيعة في ذات الله . وكتابي إلى أمير المؤمنين ، وقد أنجز الله ماكان ينتظر من سابق وعده والحمد لله» (١١)

أما بالنظر للمعاني فقد مالت إلى الاستقصاء ، والعمق مع التحليل والتعليل ولعلها فى ذلك قد تأثرت بالفلسفة اليونانية ونشأة علم الكلام وبخاصة عند المعتزلة ومن المؤكد أن كثيراً من هذه المعانى والخواطر التى وصلت إلينا لم تكن مألوفةً للعربية ، بيد أنه هيئَ لها من نابهي المتكلمين والكُتّاب والمترجمين مَنْ بعجها ، وفتق سبلها وجعلها تتسع لتلك الخواطر والمعاني دون دخول أيِّ سقمٍ عليها من شأنه أن يبهت من معالمها ، أو يتعدى على خصائصها ، أو يقلصَ مقوماتها ، بل لقد أخذت تؤنق وتزهى .

في أثناء هذا التحول العقلي والحضاري وماتبعه من تراكيبَ وصيغٍ مستحدثة لاعهد لها بها سواء في المجال العلمى والفلسفي ، أو في المجال الأدبي الخالص حتى صارت موازرة للأفكار، وكاشفة لها .

هذا ولم تقف المسألة عند هذا الحدّ من احتفاظها بالقوالب العربية ، وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع ، وتذليلها للمعانى العلمية ، والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ، ورَسْمها رسماً محدداً دقيقاً ، بل امتدت إلى أن أفرزت أسلوباً مولداً جديداً ، أسلوباً يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ – لنفسه – بالوضوح والبعد عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق للمتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعذوبة منطقه ،فتطرب الآذان لما تستمع إليه ، كما تهزج له العقول والقلوب معاً.

**من حيث الصور والأخيلة :**

لقد اتسم الخيال بقوة التأثير والدقة كما جاءت الصور كليةً وجزئية وقد تأثرت بالبيئة الجديدة ، والحضارة الحديثة التى انعكست على خيال الشعراء فصوروها أصدق تصوير ، مستخدمين كل ما انجدتهم بديهتهم واستعملوا التصويرات القريبة والمعاني الدقيقة ، وجنحوا إلى الخيال البديع الظاهر في التشبيهات والإيجازات، وحسن التعليل ومراعاة النظير ، ومالوا إلى المبالغات والتهويل والتفخيم ، مقتبسين ذلك من اللغة الفارسية من حيثُ الأغراض أو الموضوعات ؛ لأننا قلنا سابقاً إن النثر كان أقدرَ على استيعاب الحضارة والثقافة التى عرفها العصر العباسيّ الأول نتيجةً امتزاج العرب بالعجم ، ونشأة جيل من المولدين بما ورثوا منَ أفكار أممهم ، وظروفها السياسية ، والاجتماعية.على هذا النحو نشأت فيه أنواع نثرية جديدة مثل النثر العلميّ ، والنثر الفلسفي والتاريخي والتوقيعات بينما تشعب النثر الفنىّ إلي مواعظَ وخطبٍ وقصص ورسائلَ ، بل كان من سمات نهضة النثر-أيضاً-استمرارُ الأغراض التى شهدها العصر الأموى في الازدهار: كالخطب والمواعظ والرسائل الديوانية والمناظرات والعهود والوصايا ، وتطوّر بعضُها كالتوقيعات والرسائل الإخوانية والأدبية ، واستُحدثَ بعضها الآخر كالقصة التى ظهرت مُترجمة عند ابن المقفع ومؤلفة عند الجاحظ ، وهكذا ظهر على مسرح الكتابة صفوةٌ من كبار المنشئين للنثر الأدبي في أرقى صوره ، فكان منهم ابنُ

المقفع ، وسهْلُ بن هارون ، وأحمدُ بنُ يوسف وعمرو بن مَسْعَدة ، وإبراهيمُ بنُ العباس الصُّولي ، ومُحمدُ بن عبد الملك ، وأبو حَيّانَ التوحيدي.

ولما نمضي إلى **العصر العباسي الثاني** نجد أنّ حركةَ النقلِ والترجمة لازالت الوقود الجزل الذي أمرَ ذاك النشر فاندفع دولابه الإبداعي وقد ازدادت قوتة لاسيما عندما انتقلت الترجمة من النمط الحرفي البدائي – أو النشوئي التجريبي كمرحلة أولى من مراحلها البدائية –إلى مرحلة التقنية والمعلمية الحرفيّة المتمثلة في ترجمة الفقرات والعبارات إذ صارت هناك مدرستان الأولى ترأسها حنين بن إسحاق ، تلميذ يوحنا بن ماسوية الذي جلبَ من بلاد الروم طرائف الكتب ، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب.

أما الأخرى فلقد كان ثابت بن قرة زعيمها حيث يعزى إليه الفضل في ترجمة ماوصل إلينا من اليونان في الرياضيات والفلك .

فبإعطاء الاهتمام للترجمة ،والإنفاق عليها ، والتنافس فيها ... كل هذا أحدث ثورة كان من ثمارها أنها أنضجت إبداعاً ازدهاراً عظيماً في العصر العباسي.

كذلك ازدهرت حركةُ التأليف ، ونشطت الكتب فنهضت بعلم الجغرافيا والرياضيات في أعطافها الكتابات التاريخية التى نشطت نشاطاً عظيماً فمن كتابة فى تاريخ السيرة النبوية إلى الكتابة فى الأحداث الإسلامية ، والأمم والدول والمدن (١٢) وكذلك الكتابة فى التراجم والطبقات حتى انساحت فصارت خارطةً معرفيةً تتسم فيها الكثير من المعانى والثقافات .

لقد خطت البلاغةُ خطوات واسعةً نحو الكمال في سبيل تقعيدها وتحويليها إلى علم فى هذا العصر إذ كانت قاصرة على تعليق اللغويين والشعراء عن مفهوم القديم والجديد،وتباعاً فإن النقد راح يقتفي أثر البلاغة فخطا – بدوره – خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، وإن كان الذوق الذي سيطر على الأدب ذوقاً محافظاً أفرزته بيئة اللغويين والمتكلمين .

ولما ننتقل إلى علم القراءات فستبدو الحاجة ملحةً إلى عالم بالقراءات ؛ لذا اختاروا

منها طائفة تنمو وتنتشر فى العالم الإسلامى .. إنه على أعطافها وفي أبهائها ، وعلى مائدتها نما تفسير القرآن الكريم في هذا العصر نمواً واسعاً وقد اتضحت فيه اتجاهات أربع سيطرت وقتها على اتجاهاته في العصور الآتية والعصور التالية إنها : (اتجاه التفسير بالمأثور،والتفسير بالرأي ، والتفسير الاعتزالي ،والتفسير الشيعي،والتفسيرالصوفي ...

ولما نتحدث عن نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية التي جاءت الجهود المبذولة فيها متممة لما قد بدأه العصر العباسي الأول حيثُ تكونت المذاهبُ الفقهيةُ الأربعةُ بصورةٍ نهائية ،وكذلك ظل الاجتهادُ فيها نشيطاً ، ولعل هذا ما أتاح الفرصة لنمو بعض المذاهب الفقهية.

هذا ولايفوتنا القول بأن بيئة اللغويين قد قدمت كتباً مختلفةً منها مايعتمد على رواية الأشعار وبعض الأخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها مايعنى بضبط الألفاظ ، وتفسيرها مثل (كتابة الفصيح) ،وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب(الكامل) للمبرد وهو مَعْرِض لنماذج من الشعر والنثر، هذا ولقد تحدثنا عن كل ماسبق بشيء من التفصيل .

مما سبق يؤكد لنا أن النثر قد تطور - في هذا العصر - تطوراً خطيراً ،ويمكننا أن نردُّ هذا التطور لأسباب تأتي في بعضها موضحة ،وفي البعض الآخر متممةً لما قلناه سابقاً أهمها :

- **أولاً**:حركة النقل والترجمة للثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريالية تلك التي استطاعت أن تعيد التوازن ، وتضع الدعامات ، وتقدم السمت الأدبى للأعمال المترجمة،كما استطاعت هذه الثقافاتُ الدخيلة التي نُقلت إلى العربية أن توسع طاقتها ،وترفع من أسقف سياقاتها بما اكتسبت من المعاني العقلية والفلسفية حتى صار النثُر العربي نثرَ ثقافاتٍ متشعبةٍ وقد غمر أودية وشعاب الأدب رواءً خالصاً
- **ثانياً**: نتيجة للسبب السالف ذكرُه فلقد انتقلت الترجمة نقلة واسعةَ النطاق ، وكان من ثمارها أن أخذ المتكلمون يتمثلون المعاني التى ينقلونها ويسيغونها حيثُ يترجمونها إلى لغة عربية فصيحةً حتى صارت معرفتهم بخصائص العربية أدقُّ

من معرفة أسلافهم بها؛ لأن علماء اللغة والبيان استطاعوا أن يسخروها لهم، ولخدمة علومهم.. مثال ذلك (لمن كان ينهج نهجه في الدعوة إلى معايير البلاغة اليونانية نجد أن بيئة المترجمين والفلاسفة قدمت خير كتاب في مجال النثر والكتابة إنه الذي نشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر وقد تبين فيما بعدأنه جزء من كتاب (البرهان فى وجوه البيان) لإسحق بن إبراهيم ابن سليمان بن وهب،وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدي والمعتمد،توفي سنة ٢٧٢ هـ ، فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بآخره من هذا العصر ونراه في مستهل كتابه يزرى على كتاب الجاحظ :«البيان والتبين» وهذا طبيعى لأنه يمثل بيئة المتفلسفة والمترجمين التى كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية وعليه فإنهم لم يستوعبوا -في رأيه- كتابات أرسطو فى المنطق ، والجدل والخطابة) (١٣).

- **ثالثاً**:التقدم الفائق الذي قدمته بيئة المتكلمين في وضع أعمدة البلاغة النثرية حيثُ رسخ العصر العباسي الأول قواعدها بعوامل الخطابة والبيان والمناظرات ...ى تتغلب فيها كل فرقة على خصومها في حجاجة وجدله ، فوضح وكثر كا ...ـهم

وروعتها ، ومطابقة كلامه لحال السامعين مقروناً هذا بجمال حركاته،وروعة إشاراته،ودقة أدلته ، ووضوح براهينه .

من هنا استطاعوا التعرف على مقومات وتداعيات البيان العربى متطرقين إلى البلاغة ، وقواعدها وشروطها،؛لذلك - فلقد - أشار (**ابن تيمية**) إلى أن هذه البيئة استطاعت التفرقة بين الحقيقة والمجاز كما هيأت العقل العربي لباحث البيان العربي يستقرئ ويستنبط ، ويقعد ..

من هنا فإن الملاحظات البيانيةَ والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون والأدباء الذين استطاعوا التفرقة بين الحقيقة والمجاز جاءت إحدى ثمار رياض الجاحظ الذي تحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ ، وعذوبتها ، وتلاحمها وتنافرها ، وجودة صياغتها وسبكها ولا غرابةَ -إذن - أن يكون الجاحظ هو المنشئ المبتكر للمذهب الكلامي - كما يرى

ابن المعتز في كتابه ( البديع) في معرض حديثه عن دقة جيل المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير. وظلت كتابات الجاحظ في "البيان والتبين" ، وكذلك في "الحيوان" مخازن لاتنفذ للبلاغيين المتكلمين - كلٌ يأخذ منها على حسب قدرته الفنية ، وتذوقه البلاغي .(١٤).

من هنا فإنه يمكننا القول أن ذوق بيئة المتكلمين هو نفسه طابع الذوق العام وقد وكان له أثره في ازدهار النثر العربي، وتنوع موضوعاته ؛ لذا فقد يعزى الفضل فيه للجاحظ المتكلم المشهور قائد هذا الازدهار.

● **رابعاً**: رسالة العذراء: (للكاتب البغدادي) (١٥) أبو اليسر بن محمد الشيباني الذي رأس ديوان الإنشاء فقدم لنا رسالته المتضمنة معايير البلاغة ، وأدوات الكتابة حيثُ جمعت ضمناً مفاهيم البيئات السابقة حيثُ إنها أول رسالة تناولت بدقة - صناعة النثر فراح يمتدح فيها هذه الصناعة وأصولها، وعظمتها ،وطلب - ممن يريدُ أن يحترمها ويمهرفيها - مداومة التردد على العلماء ، (ومدارسة كتب الحكماء ،ورسائل المتقدمين والمتأخرين،والوقوف على الأشعار والأخبار،والسير والأسماء والخطب ومحاورات العرب ، ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ، ورسائلهم ، وعهودهم وسيرهم،مع التزود بالنحو والصرف واللغة والفقه وأبو اليسر - بذلك كلّه - يلتقي بعلماء اللغة والتصريف فهو يستضئ بهم جميعاً استضاءة جُلّى ، ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر في نزع آي القرآن الكريم، ووضعها في مواضعها ،وكذلك الأمثال والأشعار - وإن كانت الأخيرة لاتُستحب في مخاطبة الخلفاء - وهو في هذه الملاحظة يستمد تعضيد رأيه من الجاحظ مباشرة ، وقد استخدمه كثيراً في رسالته، والمهم أنه يشيد - في تكوين ثقافة الأديب - بالثقافة العربية،ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية متممةً لها ، ومدعمة مما يدل - بوضوح - على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقاً .

هذا ولم يتوقف ينبوعُ ملاحظاته عند هذا النحو بل رأيناه يتحدث عن زي الكاتب وحسن هندامه،ويطالب في إلحاح - كما طالب الجاحظُ من قبله - بالملاءمة الدقيقة

بين الكلام ، وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء ، والكتاب وولاة الثغور وقواد الجيش والقضاة والعلماء وذوي النباهة والظرف.

كما رأى إنه يتحتم على الأديب أن يعرف لكل كلمة مكانها ثم يسوق مثلاً لذلك:

أن شخصاً آخر على هذا النمط ، وإن قال كذا فقد خرج على الملة والحمد لله» ورد عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً : نحمد الله على أن تخرج امرءاً مسلماً من الإسلام هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق ، وإنما يقال في المصيبة «إنا لله وإنا إليه راجعون». ويطلب أبو اليسر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل» ومع ذكر البلوى : نسأل الله دفع المحذور ونسأل الله صرف السوء ومع ذكر النعيم مثل «الحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً. (١٦)

ويمضى فى إثر الجاحظ فيقول :«إنه لايجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولااستعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولامحاكاة الشعر فيما يحدث له من حذف ، أو ضرورات ويوصى بعدم إطالة المقدمات في الكتابة(١٧) إلى غير ذلك من إشارات وتوجيهات رائعة تهدف إلى إلمام الكتاب بصنعة الكتابة والتمهر فيها على أن الناظر فيما سبق

أبا اليسر قد استفاد استفادة غير مباشرة من الجاحظ وآثاره لاسيما أنه استنار به في إيضاح الكثير من الرؤى الخاصة بالكتابة واستعان به في كشف المعمى .

● **خامساً** لقد كثرت كتب الأدب التهذيبي في - ذلك العصر- كثرة كان من شأنها أنها أفادت النثر الأدبي لهذا العصر بشكل عام . هذا ويعد ابن أبي الدنيا من المكثرين لهذا النوع النثري الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ومثله محمد بن خلف بن المرزبان المتوفي سنة ٣٠٩ هـ ، وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية ، وله تصانيف حسنة في الأخلاق وأحوال الناس نذكر منها (تفضيل الكلاب على كثير من لبس الثياب) ، ومثلهما أبو بكر الخرائطى السامري المتوفي سنة ٣٢٥ هـ وله (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيها).

إن ما يجدر ذكره هنا أنهم سواء أكانوا معتزلة ، أو غير معتزلة فقد نهضوا بالنثر

العباسي نهضة رائعة حيث أسهموا بنصيب وافر في وضع لبنات في تشييد صرحه ، وتجميل معماره.

نعود فنقول: إن المتكلم كان لايحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا كان متسلحاً بثقافة فلسفية غزيرة .

يقول الجاحظ في هذا الصدد «ولايكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما ، ولم يكونوا يثقفون أيضاً بالثقافة الفلسفية وحدها بل كانوا يثقفون - أيضاً - بكل ضروب الثقافات التي عُرفت لعصرهم،حتى يجمعوا «التدابير العجيبة،والعلوم الغريبة،وآثار القول الصحيحة الأذهان اللطيفة،والحكم الرفيعة،والمذاهب القوية والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة»(١٨).

فالجاحظ -على هذا النحو - لايعبر عن وجهة نظره ، وإنما يعكس وجهة نظر المتكلمين جميعاً لعصره الذين أذهلتنا لسنُهم ، وقدرتهم على الجدال والإقناع،لأنهم عكفوا عن قراءة الكتابة المترجمة فلسفية كانت،وغيرَ فلسفية فكانت مفاتيح عقولهم والمسالك إلى تنويرها فضلاً عن تثقفهم بثقافة الإسلام وتعاليمه السمحة . وبالّلغة العربية ، وكنوزها النثرية والشعرية التي أشبعوا أذنيهم منها.

إن هناك كتاباً قد أثرى روافد النهر الكتابي بعذوبة ألفاظه ، وجودة سبكها ، وجمال أسلوبه الأدبي البارع .. إنه وصف البلدان الذي قدمه الجاحظ موضوعاً جديداً أسماه «كتاب الأمصار،وعجائب البلدان » حيث تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة وذكر خصائص كلّ بلد ، وطباع أهلها مع التصريح للحديث عن فكرة البيئة ، وطوابعها في السكان ، وذلك بأسلوب كتابي نموذجي .

من خلال ما سبق عرضه - من أسباب أو روافد - كان لزاماً أن يصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدداً الفروع حيث رأينا النثر العلمي ، والنثر الفلسفي ، والنثر التاريخي والنثر الأدبي ، الخالص منه ماكان امتداداً للقديم والبعض الآخر جاء مبتكراً لم تمسسه عقلية من قبلُ مثل المقامة.

## هوامش ومصادر الفصل الأول

(١) **انظر**: الدكتور شوقي ضيف في البلاغة تطور وتاريخ ط ٨ ص ١٩ دار المعارف سنة ١٩٦٥ م .

(٢) **راجع**: الجاحظ في البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٥ .

(٣) **راجع**: الدكتور على أبو الخشيب في الأدب في العصر العباسي الأول صـ ١٣٠ .

(٤) **انظر**: الدكتور شوقي ضيف في العصر الجاهلي ط ٤ صـ ٩٤ - دار المعارب بمصر .

(٥) **سوق المربد**: نسبة إلى المربد وهو موضع كان يضع فيه التمر الذي يجف لأل العراق ثم صار بعد ذلك سوقاً أدبياً رائجاً وقد تردد عليه الكثيرون من الأدباء .

(٦) **البرامكة**: كان أغلبهم يعمل بالوزرة لدى الخلفاء العباسيين حيثُ نشطت الترجمة على أيديهم وخصوصاً ترجمة التراث الفارسي واشتهرت زسر كاملة بالقيام بنقل هذا التراث إلى العربية مثل أسرة آل نوبخت وأسرة آل سهل ومترجمين آخرين . ومن أنفس ما تقوله كتب في التاريخ الفارسي وفي الأدب وفي مكارم الأخلاق ومع مشهورها كتاب (هزار آفسانة وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة).

(٧) [illegible]

والخصي من الشعر مالم يُتغزّل فيه حيث إن الشعراء يجعلون الهجاء والغلبة خصاءً . كأنه خرج من الفحول . اللسان مادة (خَصِي).

(٨) **راجع**: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية صـ ٢٣٨ دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٧٨ م .

(٩) **راجع**: المصدر نفسه صـ ٢٣٨ .

(١٠) **وسالة** بشرين معتمد تعد من أشهر الوصايا التي قام عليها علم البلاغة العربية حيث عرض لها الجاحظ في البيان والتبيين فيها يوصي بترك الوعر من الكلام . والاهتمام باللفظ والمعنى ، وترك الكتابة إذا تعسرت وضرورة تجنب الألفاظ العامية والساقطة . ويعني مطالباً الخطيب أن يكون ثبت الجنان . هادئ النفس حتى لايصيبه دهش من شأنه أن يعقد لسانه . كما يجبُ أن يتخير لفظه . وأن يلائم بين كلامه ومستمعيه أي يوازن بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين . وأقدار الحالات .

(١١) **ينظر**: في الأدب في العصر العباسي الأول لعلي أبي الخشب صـ ١٥٤ .

(١٢) **من هذا** : من هذا النوع من الكتابة التاريخية تذكر تاريخ أصفهان لحمزة الأصفهاني ، وتاريخ "قم" لحسن بن محمد القمي حيث ألف هذان الكتابان في ظروف شعوبية ، أو نعرات قومية . راجع العالم الاسلامي في العصر العباسي لحسن خليفة ص ٢٦٦ .

(١٣) **ينظر:** العصر العباسي الثانى لشوقي ضيف ط٣ صـ ٥٢٤

(١٤) **ينظر:** في العصر العباسي الثانى لشوقي ضيف ط٣ صـ ٥١٩

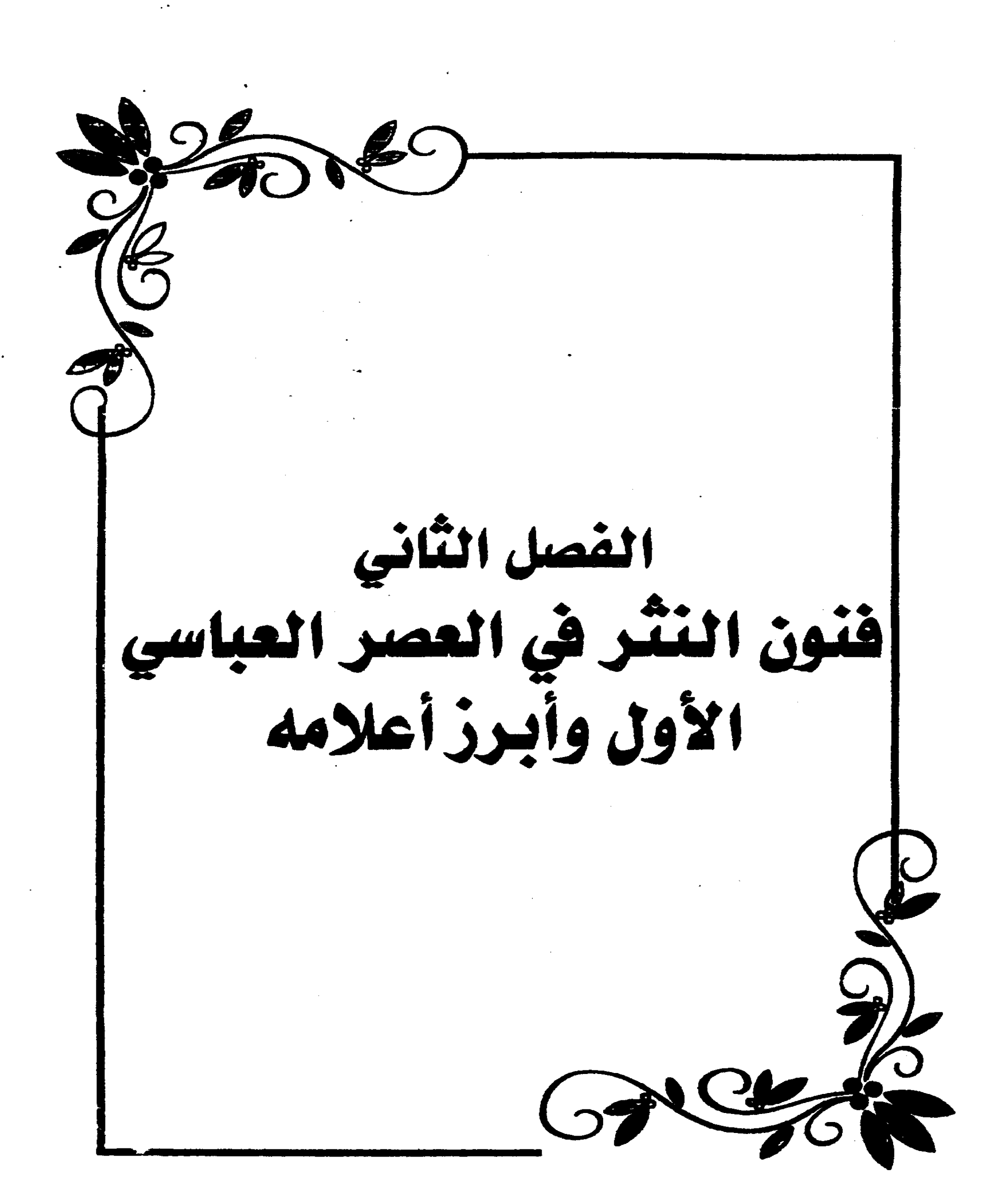
(١٥) **المصدر:** نفسه صـ ٥٢١

(١٦) **راجع** :الفن ومذاهبه في النثر العربي ط٦ ص ١١٩ دار المعارف سنة ١٩٨٠م

(١٧) **يقصد** : بالكتابة هنا الفن البليغ من النثر الذي أداته القلم وعمادة التجويد والتهذيب واصطناع الصور الأدبية الرائعة التي تبعث على الراحة ويسمي هذا الفن – عوداً – الكتابة الإنشائية أو الفنية أو الأدبية التي يتألف فيها الكتاب، ويهتم بها الأدباء وبدرسها النقاد لإبراز مافيها من قيم جمالية إذ يعدونها مظهراً من مظاهر البلاغة والبيان .

(١٨) **راجع** :العصر العباسي الثاني ص ٥٥٣ .





# الفصل الثاني
# فنون النثر في العصر العباسي الأول وأبرز أعلامه

## الفصل الثاني : فنون النثر في العصر العباسي الأول وأبرز أعلامه

تعددت فنونُ نثرِ هذا العصر فرأينا التاريخي والفلسفيَّ والعلميَّ والاجتماعيَّ ؛ لكن النثر الفني تنوع ونهضَ نهضةً قويةً ، وقد استفاد من الثقافات الوافدة تلك التي كانت باعثاً لرقي وذيوع هذا اللون .

هذا وسوف نعرضُ حديثاً مفصلاً للنثر الفني ، وإن كنا سنحصرُ دراستنا في لونين هما : الخطابة ، والكتابة الفنية ..

**• أولاً الخطابة :**

تعد الخطابةُ من أقدم فنون القول العربية ، وأشدها اتصالاً بالجنس العربي من الأجناس التي ضمتها الخلافة الإسلامية حيث كانوا يعتمدون عليها في التأثير على الجماعات في مختلف الظروف والملابسات .. ولأن العرب كانوا أمةً أميةً – لايجيدون القراءة والكتابة ؛ لذا فلقد ازدهر الفن الشفاهي – أي الخطابي – على حساب الرسائل ، حيثُ كانوا يخطبون في الحرب ، ويخطبون في الوفود ، ويخطبون عند المفاخرة ، وظل للخطابة مكانةً عاليةً حتى جاء الإسلامُ حيث كانت لسان الدعوة الإسلامية ، ووسيلة نشرها ، فبها تكون الدعوة إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكان النبي خطيباً وقد زان المنابر بحجته القاطعة ، وبراهينه الساطعة ، وبلاغته الباهرة ، وأساليبه الساحرة ، فكان نبراساً للخلفاء من بعده ، ومع كثرة الأحزاب ، والفرق المعارضة في العصر الأموي ازدهرت الخطابة لاسيما عندما عنى بها العربُ فوضعوا لها شروطاً وتقاليدَ ، هذا بالإضافة إلى كثرة الدواعي وعدم الاستقرار ، ثم استمر هذا النشاط في صدر الدولة العباسية وذلك لعدة دواعي منها ماهو:–

* أولاً : **فطري** حيث يتمثل في أن خلفاء بني العباس مؤسسي الدولة كانوا يتمتعون بسلامة اللغة ، وأصالة الطبع ، وفصاحة الألسنة ، يضاف إلى ذلك كونهم من بني هاشم ، وهم فرعٌ من قريش الذين عُرفوا بالفصاحة والبلاغة وسلامة اللغة.
* ثانياً : **موروثي** حيثُ رأينا عناية بني العباس الفائقة بالمواسم الدينية ، والأعياد

الإسلامية ، فضلاً عن انتشار مجالس العلم والوعظ التي كان يعتمد عليها الوعاظ والقصاصون ؛ للتأثير على جماهير السامعين .. كل هذا جعل للخطابة – في عهد نفوذ الخلفاء- المكانة المرموقة ، والشأن العظيم.

* ثالثاً : **سياسي** حيث يتمثل في أنه لما قامت خلافة بني العباسي حدث انقلاب خطير ترتب عليه أن رأينا العباسين كانوا في حاجة إلى نشر سياستهم على جميع الناس ، وإقناعهم بأحقية العباسيين بالخلافة التي اغتصبها الأمويون منهم ؛ لذا اتخذتها الثورة العباسية لسانَها الناطقَ ، وأداةَ تعبيرها في بيان حق العباسيين في الحكم ، فمضوا يحثون ويؤكدون في خطابتهم على التشيع لبني هاشم ، وإعلان السخط على بني أميةَ ، عن طريق الاستعانة بالخطباء الذين يعلنون- بالحجة الساطعة- حقَّهم في خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين ؛ لذا كانت سلاحاً فاعلاً في لمِّ الشمل ، وتوحيد الصف ثم أداة للأحزاب التي استشرت في ذلك الوقت.

* رابعاً : **طبيعي**: حيث إن قرب الناس من العهد الأموي قد احتفظ للعروبة بقوتها وشجاعتهم .

## أنواع الخطابة

لم تقف الخطابة عند لونٍ واحدٍ بل تتعددت ، وتنوعت على حسب الظروفِ والدواعى التي يموج بها المجتمع العباسي فرأينا : –

- **أولاً الخطابة السياسية:**

لقد نشط هذا النوع فترة تولي بني العباس –بحكم دعوتهم – لأنفسهم ؛ ليعلنوا – من خلالها- سياستهم على المنابر ؛ وليوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين ، وليثبتوا أنهم أصحابُ هذا الحق دون غيرهم بعد أن قوضوا دعائم دولة بني أمية لا سيما أنهم راحوا يقدحون في خلفائهم حيثُ انهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ونجد هذا ماثلاً في خطبة أبي العباس حين بويع بالخلافة في الكوفة ، وهي خطبةٌ طويلةٌ

نوجزها بحيثُ نوضحُ الأهدافُ منها ، يقول (١) أبو العباس : -

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام ، واختاره لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه ، وأيده بنا ، .. وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحقَّ بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته و .. وأنزل كتاباً يتلىُ فقال :

( إنما يريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ، ويطهركم تطهيراً) . وزعمت السبئية الضلالَ أن غيرنا (٢) أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ؛ فشاهت (٣) وجوههم ..بِمَ ؟ ولِمَ أيها الناسُ ؟ وبنا هدى اللهُ الناسَ بعد ضلالتهم وبصّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحقَّ ، وأدحض بنا الباطلَ ، وأصلح بنا منهم ماكان فاسداً ، وجمع الفرقة حتى عاد الناسُ - بعد العداوة - أهلَ تعاطفٍ وبر ومواساة ، فتح الله ذلك مِنَّة ، ومنحة لمحمد (ﷺ) : فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك . الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم.... ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، .. وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى أسفوه(٤) ، وتدارك الأمر بنا ، وولى نصرنا ؛ لِيَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله » .

فالناظر المدقق في هذه الخطبة يرى أنها جامعة مؤكدةٌ لكل مايريد العباسيون إثباته وداحضة لكل ما يطمعون في إبطاله ، أو مخضعة لكل مايريدون إذعانه .

لقد تحدث أبو العباس عن فضل أهل البيت - كما نص اللهُ عليهم في القرآن وتحدث عن أثر العباسيين في نصرة الإسلام وعزته وهداية الناس بعد ضلالتهم ، وإنقاذهم من الظلم ، ثم راح يؤكدُ على أحقية العباسيين بالخلافة مدللاً على ذلك بأنهم رحمُ رسول الله وقرابته ، وبأن الله أنشأهم من آبائه ، وفي هذا ما يشيرُ إلى أن العباسيين أولاد عمِّ النبي عليه السلام ، أما البنات فلا يكن عصبةً ، ولايرثن الخلافة ثم رد على الخصمين اللدودين - وهما الشيعة والأمويون - فوصف السبئية (٥) بالضلال ؛ ولأنهم كانوا يريدون الكيد للإسلام ، وتفريق المسلمين فقد استعمل الخطيب لفظ (زعم) و(قبح وجوههم) ،وأتى باستفهام للإنكار والدهشة ، وأشار بلفظ( الآباء)

إلى أبطال حقهم في الخلافة ، ثم عرَّض ، ونكَّل بالأمويين ، وذكر أن الأمور كانت مستقرة حتى وثب بنو حرب ومروان ، واغتصبوا الخلافة ، وظلموا الناس ، فأملى الله لهم كيد متين ، ثم أخذهم بأيدي العباسيين ، هذا ولقد اقتبس الخطيب من القرآن في ستة مواقف:تعالى:

الأول ( وألزمنا كلمةَ التقوى وجعلنا أحقَّ بها وأهلها ) ، الثاني ( إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً ) ، الثالث ( وأمرُهم شورى بينهم ) ، وقال : فأملى اللهُ لهم ، وهو من قوله تعالى ( إنما غلي لهم ). الخامس في قوله : ليمن على الذين استضعفوا في الأرض ) والآية تقول : (ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ استضعفوا في الأرض ) ، وختم بقوله : وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ، وفي القرآن ( وماتوفيقي إلا بالله ).

وكان العباسيون يخطبون في كل مكان ؛ ليؤكدوا حقهم في الخلافة ، وكان داود بن عليٍّ عمُّ السفاح من أخطب الناس ، وكان يرتجل ، ولايعد الخطبة ، موجزاً القول فيها نذكر منها خطبته في مكة حين وليها لابن أخيه حيث بين أهداف العباسيين من الثورة، ونبل مقصدهم ، ثم عرض بكل ما يعيب خصومهم ، وهذا نصها :

«شكراً ، شكراً للذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .. إنا والله ماخرجنا لنحتفر فيكم نهراً ، ولا لنبني فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن روخي له من خطامه حتى عثر في فضل زمانه حيثُ أخذ القوس باريها ، وعاد النَّبل إلى النزعة ، ورجع الأمر إلى مستقره في أهل بيت نبيكم ، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النبوة والرحمة ..(٦١)» .

فالخطبة - كما هو واضح - تدورُ حول المعاني التي تناولها أبو العباس السفاح ، حيثُ راحَ يؤكدُ حق العباسيين في الخلافة - كما ذكر سلفاً-وذلك بإيراد المعنى في جمل عديدة متوالية ؛ ليتنزع بها منزعَ التوضيح والتوكيد حيثُ أتى ببعض الأمثلة العربية على سبيل التمثيل والتوضيح مثل قوله :«أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى النزعة » وزاد الخطيب هنا تأكيده لنيل الهدف وأنهم ماخرجوا لتحقيق مطامع

شخصية ما ، وإنما جاءوا لنصرة الإسلام ، ورفع رايته خفاقةً استكمالاً لرسالة الرسول (ﷺ) ، وتلبية لأوامره .

ثم ولي الخلافة أبو جعفر المنصور، وكان أكثرَ من سابقيه قسوةً ، وبأساً ، وبطشاً فنكل بالمعارضين . ففي عهده ثار العلويون بزعامة نفرٍ من أولاد الحسن والحسين فقبض عليهم المنصور. وألقى بهم في غياهب السجون ، واستمرت الخطابة السياسية مزدهرة أيام أبي جعفر المنصور ، وكان المنصور خطيباً مفوهاً بليغاً ؛ لما كان يتمتع به من وجدان صفيّ ، وخيال سخيّ ، وبيان جليّ لازال باقياً على فم الأدب .

ومن الخطب السياسية التي تطالعنا في نهاية القرن الثاني خطبةُ الخليفة المأمون حين بويع بالخلافة . فقد صعد المنبَر ، فحمد اللهَ ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيُّها الناس ، إني جعلت لله عليّ نفسي أن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ، ولاأسفك دماً عمداً ، لاتُحلُّه حدودُه ، وتسفكه فرائضُه ، ولاآخذ لأحد مالاً ، ولا أثاثاً ، ولانحْلةً (٧) تحْرُم علي ، ولا أحكم بهواي في غضبي ولارضاي ، إلا ماكان في الله وله ، جعلتُ كلّه لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، أو أفي رغبةً في زيادته أياي في نعمتي ، ورهبةً من مسا ءلته أياي عن حقه وخَلْقه ، فإن غيّرت أو بدلتُ كنت للغير مستأهلاً وللنّكال مُعرَّضاً ، وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته »(٨).

ولما نُقارن بين هذه الخطبة وما سبقها من خطب أخرى نلمسُ - بوضوح - بساطةَ لهجتها الخطابية ، وسلاسة أساليبها التوجيهية كما لا نرى تأكيداً ملحاً على حقّ العباسيين في الخلافة بعد أن استقرت الأمورُ لهم ؛ لكنها حملت - بين ثناياها - الكثيرَ من صفات المأمون الشخصية وأخلاقه ، فهو يعطي لله عهداً ، آملاً أن يبر به ، ويؤكد للناس صدقاً وعدلاً أنه لن ينتهك حرمةَ الدماء ولا الأموال ، وإنما يحرصُ كلَّ الحرص على تنفيذ شرائع الله في أرضه ، هذا ولايفوتنا القولُ : إن الخلفاء كانوا يتصرفون في الأموال كما يرون ، فلم يكن هناك من يحاسب ، وكان هذا أمراً متعارفاً في تلك العهود ، كما تحمل الخطبة إلماماً وإحاطةً بالمسائل الفقهية فنرى في هذه الخطبة

بعض القوانين المتبعة في الفقه ، فهو يعد بألا يحكمَ في غضبه ، وهو قانون نصٌ عليه الفقهاءُ ؛ لأن الغضب يجمح بالقاضي ، ويخرجه عن حد الاعتدال ، أو جادة الصواب ، ولربما يثبت حقاً لمن لايستحق ، ويحرم من يستحق ، ثم إنه يقطع على نفسه عهدَ الله، وكأنه القسمُ الذي يؤديه القضاةُ قبلَ توليهم القضاء.

**● ثانياً :الخطب الاجتماعية:**

لقد ضعف هذا اللونُ الخطابي فاقتصر على بعض المناسبات الهامة مثل موت خليفة أو تولي آخر الحكم .

مثال ذلك : خطبة ابن عتبة(٩) التي يهنئُ فيها المهدي بالخلافة ، ويعزيه في أبيه المنصور في مطابقة بديعة، ونصية رفيعة حيثُ يقول: «آجرَ الله أميرَ المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أميرالمؤمنين بعده ، فما مصيبةٌ أعظمُ من فقد أمير المؤمنين ، ولاعُقْبَى أفضلُ من وراثة مقام أمير المؤمنين، فاقبَلْ ياأمير المؤمنين من الله أفضلَ العطية ، واحتسب عنده أعظمَ الرَّزية» (١٠).

فبينَ مهابةٍ ورجاءٍ ، ومودعٍ راحلٍ ، ومقبل قادمٍ ظهر الخطيبُ بارعاً في هذا الموقفِ الصعب ،واستطاعَ أن يهنئَ ويعزي في آنٍ معاً، فقد راح يجمعُ للخليفة الجديد الحسنين ثواب الله ، ومجد الخلافة .

**وفي مناسبة الزواج** ، وهي عادةٌ موروثةٌ عن الجاهلية ، وبقيت في ظل الإسلام ، إذ كان ولي أمر العريس يخطبُ أولاً ، ثم يخطب ولي أمر العروس فيشيدُ بها ، ويتحدث عن نسبها وخلقها ، ومناقب قبيلتها .

وعندما زوج المأمون ابنته من علي بن موسى الرضا الذي عقد له البيعة بولاية العهد خطب المأمون فقال : بعد حمد الله ، والصلاة على نبيه : «فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً ، وأنزله وحياً ؛ ليكون سبب المناسبة ، ألا وأني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم اقتداءً بسنة رسول الله (ﷺ) وانتهاءً إلى ما درج إليه السلف ، والحمدُ لله ربِّ العالمين» .

والخطبة – كما نرى – قد جاءت موجزةً ؛ لكنها غنيةٌ ، فقد بيَّنَ مشروعيةَ النكاح وأعلن الزواجَ ، وأكد اقتداءه بالرسولِ عليه السلام في مقدار المهر ، وهو مهرٌ قليلٌ إذا نظرنا إلى مكانة العروس والعريس ، ولكنه اقتدى بالرسول (ﷺ)هذا ولقد أوجز المأمون ؛ لأنه ليس في حاجة إلى بيان مكانة العروس ، فهي بنت أمير المؤمنين.

## ثالثاً: الخطب الدينية

وفيها لم يختلف الحال كثيراً عما كان عليه حيث استمرت في المناسبات الدينية وذلك في الجُمَع ، وفي عيد الفطر ، وفي عيد الأضحى ،وقد غلب عليها المعاني المكررة فهي ترغبُ في الطاعة ، والتقرب من الله ، وتحثُّ على المعروف ، واتباع سنة نبيه ، وتنهى عن المنكر . وفي العيدين كان الخطباء يرسخون القيم والمبادئَ التي يسيرون عليها ، فراحوا يتحدثون عن زكاة رمضانَ..... مقدارها ومستحقيها ، ووقت إخراجها ، وفي عيد الفطر،وفي موسم الحج راحوا يتناولون مناسك الإحرام والطواف ،والوقوف بعرفة ، وما إلى ذلك ، وكان الخطيب يعد الخطبة قبل إلقائها ،وربما أعدت له فحفظها وألقاها.

من هذا اللون نقرأ خطبة المأمون في عيد الأضحى حيث كان فصيحاً ، جهير الصوت ، في حديثه رونق وملاحةٌ ، ربما تترجمها قوله بعد حمده وتكبيره : « إن يومكم هذا يومٌ أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظَّم حرمته ووفَّق له من خلقه صفوتَه ، وابتلى فيه خليلَه ، وفدَى فيه من الذَّبح نبيه ، وجعله خاتمَ الأيام المعلومات العَشْر ، ومتقدِّم الأيام المعدودات من النُّفر (١١) ، يومٌ حرام من أيام عظام في شهر حرام ، ويوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله عز وجل : (وأذِّنْ في الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ ) . فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائرَ الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول : ( لن ينالَ اللهَ لحومُها ولادماؤها ولكن ينالُهُ التقوى منكم » (١٢)

والمأمون – في هذه الخطبة – يعظِّمُ يوم عيد الأضحى ، حيث فضله الله على سائر

الأيام ، ففيه حج بيت الله الحرام ، وفيه ابتلى الله إبراهيم عليه السلام حيث أوحى إليه في المنام أن يذبح ابنه اسماعيلَ فأظهر مطلق وكمال ووجوب الطاعة لله ، واصطحب ابنه ليذبحه فكافأهما الله بأن فدى إسماعيل بذبح عظيم ، ويعاود الخطيب الحديث عن فضل هذا اليوم إذ يعدُّ خاتم الأيام المعلومات ، وهي الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة ، وهو - أيضاً - متقدم الأيام المعدودات التي ذكرت في القرآن الكريم، وهي الأيام التى تعقب يوم الوقوف بعرفة ، حيث ينفر الحجاج من عرفة إلى منى ، ويوصى الناس بأن يتقربوا إلى الله في هذا اليوم بالذبائح من طيب أموالهم ، وبنية خالصة لله ويوصيهم بتقوى الله ولزوم طاعته ، وقد اقتبس الخطيب من القـرآن الكـريم .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الخطابة الدينية قد ضعفت على لسان الولاة ؛ لأنهم كانوا يخطبون بكلام غيرهم ؛ لكنها ازدهرت وترعرت في بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد ، والبصرة والكوفة ، وكانوا من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يحضر مجالس الخلفاء ، ويعظوهم حتى يبكوهم بما يوقعون بما في نفوسهم من خشية عقاب الله ، ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودة بين

واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد ، ويروى عن أولهم أنه دخل على المنصور فقال عظني ، فوعظه قائلاً :«إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخَّض عن يوم ولا ليلة بعده فوجَم أبو جعفر من قوله فقال له الربيع [13]: ياعمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو : إن هذا صَحبك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً،وما عمل وراء بابك بشئ من كتاب الله ، ولا سنة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع؟!قد قلت لك :خاتمي في يدك فتعالَ وأصحابك [14]، فاكْفني .قال عمرو: ادعنا بعد ذلك تسخُ أنفسنا بعونك .ببابك ألف مظلمة ارْدُدْ منها شيئاً نعلم أنك صادق » .

وكان ابن السماك محدثاً ، وواعظاً مؤثراً ، رَوَى عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وله كلام ومواقف بين يدى الرشيد تدور في كتب التاريخ والأدب ، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يوماً ، فقال له الرشيد : عظني ، فقال [15] : «ياأمير المؤمنين : اتق الله وحده

لاشريك له ، واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدى الله ربك ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضلّت لحيته ». (١٦)

وبالنظر إلى المادة التي كان يسترفد منها الوعاظُ زادهم فقد كانت من القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وأقوال الصحابة ، والتابعين ، ومن سبقوهم إلى الوعظ في العصر الأموي أمثال الحسن البصري، هذا ولقد مزج كثير من الوعاظ وعظهم وبتفسير بعض آيات القرآن الكريم حيث كان يرجع تاريخ هذا المزج إلى صدر الإسلام .

وعلى كل فإن للقصص والوعظ سمتين تميزا بهما هما :

- **أولاً:** أنهما نهضا بصناعة النثر في المعاني التي كان الوعاظ يتداولونها حيث فصّلوا وولّدوا من تلك المعاني اشتقاقات ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التي تمس العقول والقلوب معاً.
- **ثانياً:** اعتنوا عناية كبيرة بأساليبهم التي قامت على التركيز الشديد الكبير في اختيار المعاني ، والدقة في اختيار اللفظ ، والإحساس المرهف بجمال الصياغة وجودة السبك ، ولعل هذا أدى في النهاية إلى استخدام السجع .

**رابعاً: الخطب الحفلية**

لقد تضاءل هذا اللون وضعف شأنه حتي صار نادراً ، ربما لأنه لم تعُد القبائل تقدمُ بوفودها -كما كان الشأن في بني أميةَ- مبايعة ومؤكدةً على المؤازرة ، كذلك فإن وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء بحيث انقطع التواصل بين الخليفة والرعية فاقتصرت الخطب على مناسبات الفرح أو العزاء......

**السمات العامه للخطابة:**

لقد اتسمت الخطابة في هذا العصر بسمات تكادُ تميزها عن غيرها من بين أساليب الخطابة في مختلف العصور الأدبية إذ عرف الناس ذلك النوع من الكلام الذي يعتمد فيه القائل على إثاره الشعور، واستماله القلوب ، وبالتالي صارت تحاكي الأساليب الضخمة . هذا **أولاً:**

● **ثانياً:** اتسمت بقوه تأثيرها، وروعة تصويرها لاصطباغها بصبغة الدين ، وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم، واعتمادها على الكثير من آياته ، والاقتباس من عظاته واستعاراته وكناياته وتشبيهاته ، وضربه الأمثال للناس والاستشهاد بكلام الرسول (ﷺ) وكثرة التمثل بالشعر القديم في مواضعه المناسبة ، كما كثر فيها أسلوب الحجاج ، ومعاني الوعيد والتهديد ، والامتنان بالنعمة والشكر على المودة.

● **ثالثاً:** بعدت الخطابةُ عن الحوشية والغرابة، والابتذال والإسفاف ، وذلك باختيار الألفاظ الفخمة الملائمة، والمعاني الواضحة، والميل إلى التكرار للتأكيد ؛ لأنهم توارثوا عن آبائهم وأجدادهم ملكةً أصيلةً ، وذوقاً سليماً ، يجعلهم يمتلكون ناصية اللغة ، ويحتلون ذروتها الرفيعة.

● **رابعاً:** الاهتمام بجمال صياغتها ، وترابط أجزائها ، وحسن تنسيقها ، وقصر فقراتها

● **خامساً:** اتسمت بالنكير على بنى أمية لما كان يقترفون من الآثام، وما يرتكبون من الأوزار مما أدى إلى كراهيتم لعهدهم ، وترقبهم لمصيرهم ، أو لسوء عاقبتهم.

وفي اخر العصر العباسي الاول ضعفت الخطابه بزوال اسبابها واعجميه رجال الدوله هذا **أولاً** ...

**ثانياً** لأن الدولة قد توطدت دعائمها، وقامت أركانها وقل الخروج عليها، كما قل خلاف العباسيين فيما بينهم...

**ثالثاً:** بطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات، وقد تنوعت أساليبها وأغراضها فضعف شأنها، ولم يبق لها إلا مظهرها الديني حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى.

**رابعاً:** إن الكتابة قد حلت محل الخطابة .

**خامساً** تخاذل الخلفاء عن الخطبة وإنابة غيرهم منابهم فى الصلاة فاستهان الناس بالخطبة تبعاً لاستهانتهم بالخطيب وبهذا ضعفت الرغبة في القول العامة.

## ثانياً: الكتابة الفنية:

ما من شك في أن الكتابة قد نشطت في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً حتى صارت صناعةً متميزة الأصول ، راسخة القواعد، ممتدة الجذور، متشعبة الفروع، وذلك بما أدخله الجيل الناشئ من أبناء الكتّاب والموالي بعد نقل الدواوين إلى العربية حيث توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم ما تدرّه عليهم من أرزاق واسعة ، وما سيشغلون من المكان العالي، والثروة الرفيعة والسؤدد ، والشرف العظيم فكان من يظهر منهم مهارة فنّى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذي يعمل فيه لاسيما من كان ملماً باللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية وهي لغات أمم ذات ثقافة وحضارة.

نذكر على سبيل المثال أبان بن عبدالحميد اللاحقي الذي طلب منه يحيى البرمكي المعجب بكتاب «كليلة ودمنة» أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظها ، وكان ابن المقفع قد نقله قبل ذلك نثراً... وقد ينال الكاتب من الحظوة ، والمكانة المرموقة فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة، ويصرف أو يدير شئونها ، فإن لم يصبح وزيراً صار والياً لإقليم .

فالحسن بن اللحياح البلخي الذي كتب للمهدي والهادي والبرامكة- وقد ولي مصر في عصر الهادى والأمين، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذي ولي فارس ، فكثيراً من الولاه والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية أمثال جعفر بن محمد ابن الأشعس والي خرسان للرشيد، ومثل أبي دلف العجلي قائد المأمون ...

ونظراً لاتساع رقعة الدولة ، وضخامة أعمالها عهد الخلفاء إلى كبار كتابهم فصارت الكتابة- على هذا النحوّ في هذا العصر - السلّمَ الذي يستطيعُ الكتابُ من خلاله أن يرتقوا درجات المجد والشهرة ممثلة في المناصب التي كانت محط أنظار الكتاب الطامحين في العيش الرغيد، والثراء الفاحش ؛ لذا كثر الوافدون الطارقون أبوابَ الدواوين وبخاصة الواثقون في قدرتهم علي صناعة الكتابة قدرةً توفر لهم مادتهم اللغوية والأسلوبية التي تمكنهم من الوصول إلى غاية الإتقان والجمال الفني

والوضوح الذي يعد أداة التعبير الموصلة لإفهام الرعية ، وزمام الجمال الفني فكان يتمثل في براعة القول، وفصاحة، وعذوبة الألفاظ،ورونق العبارة، وجودة صياغتها ،وحسن سبكها بحيثُ تنتخب أذواقُهم الألفاظَ ، وتستدعي لها ما تطلبهُ من المعاني رغبةً في البعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي هذا من جانب ..

على جانب آخر فقد كان يشترط لشغلهم مناصبهم أن يتقنوا طائفة من العلوم والمعارف والآداب، ويأتي في مقدمتها علوم اللسان العربي ، وكذلك علم الفقة الذي أستعين به في شؤون ديوان الخراج وما يجبى لأهل الذمة ، وكذلك علم الحساب.

**عوامل نهضة أو ازدهار الكتابة**

يمكننا إرجاع رقي الكتابة وتطورها إلى عدة روافد أهمها:

أولاً : اتساعُ حركة نقل الآداب الفارسية وكلُ ما أُثِرَ عن ملوك الفرس ، ووزرائها من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما أسهم في كثرة وتعدد الكتابات العباسية (١٧).كذلك فإن العباسيين قد احتاجوا إليها في إقامة دولتهم ، وتثبيت دعائمها.

ثانياً : ظهور الثقافة السياسية ، وبخاصة ما كتبه الفرس فى عهودهم ووصاياهم ، وكان لابدَّ لهم من إلمام واسعٍ بأخبار العرب وأشعارها ، وكل ما يتصلُ بهم وبخلفائهم.

ثالثاً : حفظُ الكتَّاب للقرآن الكريم ، واقتباسهم منه حيث حاولوا تقليده في أساليبه وجودة بيانه وعذوبته، والتئام تراكيبه ، هذا بالإضافة إلى كثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب ، والآداب المترجمة...

رابعاً: ازدهار حركة الخط العربي في العصرالعباسي دفعت الكتَّاب إلى الكتابة؛ لتصبح اختياراً واعياً لموهبتهم، ووعاءً تُصبُّ فيه قرائحهم، وسجلاً لمعايشهم وتصريفاً لشؤونهم ، ومعاونة لخلفائهم ووزرائهم ، وذلك من خلال تحرير مكاتبات الدولة الرسمية ،وفي التوقيع على الشكاوى والظلامات.

خامساً : أحاديث الرسول الكريم (ﷺ) وسنته المطهرة الذي تميز بأسلوبه الرائع، وبيانه الجامع وحجته القاهرة، وبلاغته الناضرة . كذلك ما كان هناك من التراث النافع من المعاهدات التي كانت تصدر للولاة والأمراء والقضاة وكذلك رسائل الخلفاء الراشدين وبني أمية ، وهي جامعة لكثير من الصور الرائعة في البلاغة إذ انتفع بها الكتاب والأدباء ، فكان لهذا كله أثره في تقدم هذا النوع من الكتابة حتى وصلت إلى ما كانت عليه من جمال الأسلوب ، ودقة التصوير، وحسن الصياغة.

سادساً : كان هناك رصيد ضخم من خطب ورسائل القواد ، ورسائل الكتّاب من رجال بني أمية أمثال زياد والحجاج ومسلم بن قتيبة ، وقطري بن الفجاءة حيث انتفعوا بهذا الرصيد فكان عاملاً في سمو أدبهم ، وحسن صياغتهم ، وسهولة أساليبهم إذ صارت صناعة عتيدة ، لها أصولها ومناهجها وقواعدها .وقد سئل عبدالحميد الكاتب فقيل له : ما الذي مكّنك من البلاغة ، وأمسكك زمام الفصاحة. فقال " حفظ كلام الأصبع" يريد أمير المؤمنين علياً "كرم الله وجهه" ولا غرابة أن يكون لهذا الرصيد الأثر البارز في إنشاء الرسائل في هذا العصر .

سابعاً إنهم سلكوا الأسلوب الذي كان عبدالحميد الكاتب يسلكة حيث أخذوا يقلدونها ويترسمون خطاها ، وهي طريقة تهتم بتنوع العبارة ، ووضوح الألفاظ ، والزهد في السجع والمحسنات المعنوية .

هذا ولقد اختلفت رسائلهم في الإطناب والإيجاز واللين والشدة والابتداء والانتهاء حتى مالوا إلى الالتزام بالدستور في كتابتهم حتى ظهر لهم طابعاً أو مذهباً فنياً يخصهم، وينفردون به.

أخيراً: أن الكتابة كانت الجسر الذي يعبر عليه الكتاب إلى الوزارة ، وبعض الوظائف المرموقة في الدولة إذ كان الناس يتقنونها لكي يصلوا إلى المناصب العليا.

## فنونها

لقد اتسعت أغراض أو فنون الكتابة اتساعاً مطرداً، وتشعبت ميادينها ،

وتنوعت فنونها على حسب موضوعاتها، وأهدافها، وتعددت أساليبها، واتسع أفقُ الكتّاب بارتفاع أسقف معارفهم ، وما حصلوا عليه من ثقافةٍ وفكرٍ فخصبت، وجادت وأثمرت قرائحهم، وعمقت أفكارهم، ورحبت خيالاتهم، حتى صرنا نتوقعُ منهم ألواناً متعددة من الكتابة الإمتاعية تلك التي " تستهدف الإمتاع العقلي والنفسي وتستهوي جمهور محبي القراءة في أن يقبلوا عليها ويلتذوا بها، ويستمتعوا بفنونها،

هذا وسنعرض لأنواع الكتابة الفنية عرضاً مفصّلاً نستطيعُ - من خلاله -أن نقدم خارطة معرفية لكل فنٍّ على حدة...

**أولاً: الرسـائل:**

لقد ظهرت وازدهرت بتطور الإسلام، لما حث النبي (ﷺ) المسلمين علي وجوب تعلم الكتابة والقراءة إذ كان "عليه الصلاة والسلام" يكتب رسائل إلى الدول المجاورة، وفي عهد الخلفاء الراشدين تبودلت الرسائل بين الخليفة والولاة في مختلف الشؤون السياسية فكانت وقوداً جزلاً لاستمرار تفوقها ، وآية ذلك أننا رأينا عمر بن الخطاب أول من دوَّن الدواوين - راح يتخذ ديواناً للجند ، وآخر للرسائل ... ولما قامت الدولة الأموية اتخذ معاوية بن أبي سفيان ديواناً للرسائل في عهد الدولة العباسية ، وعظم شأنُ ديوان الخلافة واتخذ ولاة الأقاليم والوزراء والقادة دواوين متشابهة.....

هـذه الـدواوين هـي :

**١- الرسائل الديوانية**

تبنى هذه الرسائلُ - كما يقول القلقشندي - على مصالح الأمة ، وقوام الرعية من مكاتبات الملوك ، وسراة الناس في مهمات الدين، وصلاح الحال ، إذ كانوا يتراسلون- كما يرى الثعالبي- " في جباية خراجٍ، أو سد ثغرٍ ، أو عمارة بلادٍ، أو إصلاح فسادٍ أو تحريضٍ على جهاد ، أو احتجاجٍ على فئة

هذا ولقد أطلق عليها الرسائل السلطانية ؛ لأنها كانت تصدر علي الديوان العالى بتأييد مذهبٍ ، أو تمكينِ سياسةٍ، أو تفضيل فريقٍ على فريق .

ولقد اتخذ الخلفاءُ هذه الدواوين لرسائلهم ؛ فضموا إليها أبرزَ الكتاب، ولم يكنْ الوصول إلى منصب كاتب ديوان الرسائل سهلاً، إذ كان لابد له من إجادة عدد من العلوم اللغوية والعقلية والدينية تلك التي تعينه على تأدية مهامه في التعبير عن الخليفة، وفي الخراج والحساب ، كما كان لزاماً أن يلم بآداب السياسة والمجالس.

وفي هذا الصدد ألف ابن قتيبة كتابه أدب الكاتب، " إذ أثبت أنهم كانوا يمرون باختبارات دقيقة فإذا نجح الكاتبُ ، وأظهر براعة فائقةً، وثقافةً عالية ضُمَّ إلى ديوان الرسائل "(١٨)كما اتخذ ولاة الأقاليم دواوين مشابهةً لديوان الخليفة ، واختاروا لها أمهرَ الكتاب، وكذلك فعل الوزراء والقادة، وعظم شأن كتاب الدواوين ، وصارت لهم مكانة اجتماعيةٌ رفيعةٌ ، وتولى بعضهم ولايةَ الأقاليم، بينما تولى البعض الآخر الوزارة فظهر التنافس بين الكتاب ، وأدى هذا إلى رقي الرسالة ، والافتتان في القول.

لقد ازدهرت الرسائل الديوانية في العصر العباسي، حتى غدت تستحوذُ على معظم الرسائل في صدر الدولة العباسية نظراً للخلافات بين الأحزاب ، والادعاءات المتعارضة، وكان الخلفاء أنفسهم كتاباً فصحاء ؛ لذا شرعوا يصطفون أمهر الكتاب ؛ ليتولوا رياسة دواوينهم، وكان للرسائل أثرٌ كبيرٌ في مختلف الأحوال :كأخذ البيعة للخلفاء أو ولاة العهود ، وفي نصح الولاة الثائرين أو تهديدهم ، وفي شئون الحرب ، وإصلاح الرعية، "وفي تصريف أعمال الدولة ، وما يتصل بها من تعيين القواد والولاة أو عزلهم ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج وأحوال الولايات " (١٩)، وما إلى ذلك، وصار للرسائل تقاليدٌ خاصةٌ في البدء والختام ، وفي الألقاب والدعاء، هذا بالإضافة إلى اختيار الألفاظ المناسبة.

فمن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة في عصر المهدي ، – وربما لحقته هذه الشهرة في عصر المنصور – محمد بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام ، فاتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً ومستشاراً سياسياً وثقافياً له ، حيث توطدت العلاقة بينهما إبان نهوض الأول بقيادة الجيوش في غزو الروم وقد كتب عنه العباس رسالة إلى المهدي حين جعل ابنه الرشيد ولي عهده ، بعد أخيه الهادي عام سنة١٦٣هـ وفيها يوثق البيعة

أولى العهد الجديد قائلاً :(٢٠)

"لقد آتتنا بيعةُ هرون، على حين ظمأ إليها ، وتطلّع نحوها فتبادرتْها أكفُّنا، وأسرع إليها شاهدنا، وغائبنا ، وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحةٍ من نياتنا ، وسلام من صدورنا، مستبشرين ببيعنا ، راغبين فيما صفقت (٢١) عليه إيماننا، عارفين بأنها مفتتح نعمة ، ومقدمة فضيلةٍ ، ودرجة في الخير رفيعة ، مقدمين للسرور بها نصح الجيوب باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب."

ونذهب إلى عصر الرشيد حيث يلقانا يحيى البرمكى، أحد من زاوج مزاوجةً رائعةً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وقد نتج عنها أن رأيناه يحتل مكانة سامقةً بين مجايليه ؛ لذا قلده المهدي الكتابة لابنه، منذ جعله وليّ عهده، والقيام على نفقاته ، وتدبير أمر الجيوش التي كان يقودها الرشيد ضد الروم، وَحسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولي الخلافة قلده أمور الرعية ، وسلّمه خاتم الخلافة ، فجعل بيديه مقاليد الأمور آمراً ناهياً كما يشاء ، يستعمل على الولايات والأعمال من يريد ويعزل - عوداً - من يريدُ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، وولى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك، إذ يأمر بقتل جعفر ، وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا في الحبس. فلما نكبه وسجنه الرشيد كتب إليه رسالة بليغة يقول فيها :(٢٢)

"من شخص أسلمتْه ذنوبه ، وأوثقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان، فحلَّ في الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدَّعة، وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهاد بعد الهجود ، ساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت ، وشارف الفوْت، جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك"

فالناظر إلى هذه العبارة المسجوعة يلمس بوضوح مدى عناية يحيى بدقة بتعبيره وجمال سكبه ، وحسن تجويده الفنى ، ولعل هذا يجعلنا نقول-ونحن مطمئنون-أن البرامكة كانوا من أهم العوامل التي ساعدت على شيوع السجع في الكتابة الديوانية ،

ومن الكتاب الذين اشتُهروا بالكتابة في عصر المأمون طاهر بن الحسين الذي قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين لما حاصره ببغداد حتى قتله سنة ١٩٨هـ فولاه المأمون خراسان، والمشرق عام٢٠٥ هـ ، ولم يلبثْ أن توفي سنة ٢٠٧ هـ ، وله وصيةٌ كبيرةٌ ، كتب بها إلى ابنه عبدالله حينَ ولاه المأمون الرقّة سنة ٢٠٦هـ (٢٣)، وهي أشبهُ بدستور للحكم القويم، والحاكم الرشيد، وقد وزعها بينَ ما يجب على الحاكم في دينه وخلقه، وما يجب عليه في سيرته بين رعيته ، حيثُ استهلها بحديثه عما ينبغي على ابنه من تقوى الله وطاعته، والتمسك بسنة رسوله، والتابعين من بعده ، ثم نصحه بالاعتدال في حكمه، وعدم الريبة في عماله ، كما أمره بالحيطة والحذر في التعامل مع الرعية ، والتوجه إلى إصلاح البلاد ، وذلك بعمارة الديار بما يكفل حسن معايش الناس وراحتهم وأمنهم ، كما أمرهُ بالعناية الخاصة بالجند وروابتهم وأمنهم ، كما دعاه إلى الاهتمام بأمور الفقراء والمساكين وأحوالهم ، وذلك بتوفير المأكل والمشرب والمسكن ، وحسن الرعاية الطبية لهم مع تفقد العمال .... تنظرُ إليه وهو يقولُ (٢٤):

"اعلمْ أنك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً، وإنما سُمّي أهل عملك رعيتك ؛ لأنك راعيهم وقيّمهم، تأخذُ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدهم، فاستعملْ عليهم في كُوَر عملك، ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالرياسة والعفاف ، ووسّعْ عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، ولا يشغلنّك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فإنك متى آثرته ، وقمت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادةَ النعمة من ربك وحُسْن الأحدوثة في عملك ، واحترزتَ النّصيحة من رعيتك ، وأعنتَ على الصلاح فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كُوَرك، فكثُر خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويتَ بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضيّ العدل... واستعمل الحزمَ في كل ما أردت، وباشْر بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرُغْ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثرْ مباشرته بنفسك، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك

عن عمل يومك الذي أخرت "

هذا ويقال إن المأمون قد طلب هذه الوصية بمجرد سماعها ، وذلك لما اشتملت عليه من التوجيه الدنيوي والأخروي النبيل والحث والنصح والإرشاد الكريم...

**٢- الرسائل الإخوانية :**

ونقصد بها الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم بكل ما تموج به من رغبةٍ تغري ، ورهبةٍ تثني ، ومن مديحٍ يطرب ، وهجاء يعذِّب ، ومن عتاب رقيق ، واعتذار واستعطاف يليق، ومن تهنئة واستمتاعٍ رائع ، وتعزية أو رثاء فاجع. وكانت هذه العواطف تؤدى في العصر الأموي مترجمة بالشعر وكان من النادر أن تؤدى بالنثر .

أما في هذا العصر فقد زاحم فيه النثرُ الشعرَ بمنكب ضخمٍ ، فساهم في إظهاره بشكل كبير حيث أتاح له أمران :

**الأول:** ظهور طبقة ممتازة من الكتاب الذين يجيدون فيه إجادةً رائعةً وخاصة من كان يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة ، وكانوا يعنون بتمييز كلامهم وتحديده بهدف تنميقه وتجويده ، وحشد كل مايمكن فيه من عناية فنية ، على نحو مامر بنا آنفاً .

**الآخر:** طواعية النثر ومرونته ، وبساطة تعابيره ، ويسر تراكيبه ، وقدرته على تصوير المعاني وتجسيدها ، قدرةً قد لا تتاح للشعر وذلك لارتباطه أو تقييده بقواعدَ موسيقيةٍ معقدة من وزن وقافية . لقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرنوها -أي هيأوها- على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدةِ غيرِ المألوفةِ .

ويطالعنا في كتب الأدب الكثير مما نثره كُتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء حيثُ أقبل عليها كثيرون فراح كل منهم يتأنق فيما يكتب منها ، ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته ومايودع فيها من مهاراته الفنية ، وطاقاته الإبداعية.

وممن كان يعني بها عنايةً واسعةً في أوائل هذا العصر ابنُ المقفع ، وكذلك محمد بن

زياد الحارثي ،أخو يحيى بن زياد الحارثي ورفيق مطيع بن إياس وجيله ، وله في الشكر قوله (٢٥) :

" قد يجب على من يتقلب في ظلّ كرامتك ، ويأوي إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ، ويخبرُ عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منّتك لديهم ، فيما أبليت ، وأوليت من جميل رأيك ، وحُسن أثرك ، بعطفك وتحنّنك ، واستخلاصك إياه مِقة وأنساً ... في أيادٍ من أياديك عُظمت فلاتُجْحَدُ ، ونعَم من نعمك شُهرت فلاتنكر ، ولايُحْصَى عددها ، وإن اجتهدنا في حفظها ، ولا نبالغ في شكرها ، وإنْ دأبْنا في بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منّةً علينا ، ويدا عندنا ، فنحن لك صنيعة مابقينا وبقي الخَلَفُ منها "

نعود لابن المقفع فنجد في ترجمته للأدب الكبير مادةً غزيرةً للكتاب يسترفدون منها كل مايريدون من تصوير للأخوة الحقة ، والصداقة الحقيقية إذ نراه يصورُ ذلك في رسالة لجيل بن يزيد إلى إخوانه يقول فيها (٢٦):

" اعلم أني إليك مشوقٌ ، وأن صلة الإخوان كرمٌ ، وخير الصلات مالم يكن لها وجه إلا الرجاءُ ، والحفظ وتجديد المودة ، وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكاتب إخوانه على حال الرغبة ... إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به ، والذي يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء ، والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء ، والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لايلومك اللائمون لمنزلة البلاد تلك اللائمة على التقصير ، ولا توضع منك الرغبة في الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال إن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة .

فالرسالة التي بين أيدينا تضع لنا المقاييس الحقيقية والمفاهيم الأصلية لصحة الإخاء .

وديمومته حيثُ نراه فيها يصنف لنا الأخوة - على حسب الطلب أو على مقتضى الحاجة ولربما على السجية - صنفين : الأول : يطلبها للرغبة أو الإشباع النفسي، والآخر : يطلبها للضرورة ، وإخاؤه - في ذلك - مرهون بحيث إذا نزل بصاحبه مكروه قطعه ، أو تركه وحيداً ، ثم بيّن موقفه من الصنفين السابقين فيرى أن إخاءه ليس من هذين النوعين ، بل هو إخاء صحيحٌ تابعٌ من نفسٍ كريمةٍ ؛ لذا فإنه يتسم بسلامة النية ، وصحة القلب ، وجمال الروح ، وحسن الطباع وعفة النفس .

هذا ولم تقتصر الرسائل الإخوانية على ماسبق بل نسوق لوناً آخر كان من الإخوانية ألا وهو التعازي عندما يحدث للمخاطب أيُّ مكروه فتأتي الرسائل لتتحدث عن ثواب المنكوب وقوة تحمله وشدة صبره على مصابه ومايجب عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه . هذا ويُروى أن المهدي قد جزع جزعاً شديداً حين توفيت ابنته البانوقة فكتب الكثيرون يعزونه ، وكان إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي واحداً مما عزاه برسالة قال فيها : " أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حقَّ الله عليه فيما أخذ منه مَنْ عظّم حق الله عليه فيما أبقى له ، وأعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافون منه "(٢٧) .

وجاءت بعض الرسائل في العتاب ولربما تجاوز حدوده فصار هجاءً مقذعاً وسباباً قاسياً ، وقد أحاط بالعمق والافتنان والشمول في القول ، والإجادة في التعبير والروعة في التصوير حصراً.

**٣- الرسائل الأدبية:**

هي رسائل استطاع الكتابُ أن يعبروا فيها عن كل ما يدور بينهم من ثناء أو هجاء ، أو عتاب فراحت كتاباتهم تصور عواطفهم ومشاعرهم التي تتناول خصال النفس الإنسانية مبينة أهواءها وأخلاقها ، وراسمةً طريقها إلى الخير حتى لاتسقط في مهاوي الشر ، أو مقاتل الردى فعمدوا فيها إلى الإيجاز حتى لا يمل السامع من طولها.

وممن يصور ذلك في كتاباته يحيي بن زياد في رسالته (٢٨) التي رد بها على

رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

" أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة ، وتقريبه لدى البُعْدة ، ومشاركته بين ذوي الأرحام في القربة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته ، فنسينا الإخاء فوجدناه في نسبته لايستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسيناه انتسب لنا إلى البر ، فوجدناه محتوياً على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكانة وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامد ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب فعدنا إلى الإخاء ، فوجدناه لايقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه ... ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التروي وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله واستوجب - إذ كان جماع المحامد - أن نتخيَّر له محامله التي يُحْمَل عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة فى الانتهاء ، فقدموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستحلوا عاجل المحبة ولهوا من آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لأئمة ، ولم يجد المعذرون إلا الصبر على تلك ، والاستعمال للرأي والاستعداد بالعذر عن المحاجَّة .

فالملاحظ أن يحيي لم يتناول الإخاء الذي راح يتحدث عنه في ابن المقفع حيث كان على وصال مع وإنما تحدث عنه حديثاً شمولياً مؤكداً الدعامات التي يقوم عليها وأساسها مجموعة من الخصال النبيلة يأتي في مقدمتها الكرمُ الذي يجعل الأخ باذلاً ماله لأخيه ، والصدق الذى يدل على مطلق الصراحة ، وإخلاص السريرة ، والحياء الذي يدفع صاحبه بعيداً سوء الأدب والبطش ، والنجابة التي تمنح صاحبها صواب الرأي ، وصدق الحث أو الزكانة الذي يتيح لصاحبه الوصول إلى الرأي الصائب والقول الصحيح

ويشترط يحيى بن زياد للإخاء ضرورة التحلّى بالخصال النبيلة بحيثُ يجب على كل شخص أن يتمهل فى اختيار صديقه حتى لا يتورط في صديق السوء الذي يجلب له

العداوة، ثم راح يصنف الناس من حوله صنفين (٢٩):

الأول : يعذرونه ؛ لأنهم ممن يرون رأيه في اختيار الإخوان إذ يتلمسون الأعذار.

الآخر : لايعذرونه أي يتعسفون عليه ؛ لأنهم يتسرعون إلى بذل إخائهم دون النظر إلى استحقاقهم لما يبذل من عدمه ؛ لذا ينتقض إخاؤهم ، وتتحسرُ صداقتهم بحيث لايصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة وبالتالي يتحسرون على أيام الوصالِ الذاهبة .

نعود ثانية إلى الرسالة السابقة فنقول : إن هذه الرسالة تتشابه ضمناً وسياقاً مع ماعرضه ابن المقفع من رأى في اختيار الصديق وصفاته ؛ ليستحق – في نظره – هذا الاسم المأخوذ من الصدق وهي نموذج من الأدب الكبير .

من هنا فإنه يمكننا القول بأن مثل هذا النوع من الرسائل ما هو إلا امتداد للرسائل الإخوانية الذي ينحو فيه الكاتب هذا المنحى من التجريد والنظر والموضوعية إذ يصبحُ فيه الحديث عاماً والنظرة كلية بعيداً عن المحادثة عن طريق ( أنا ، وأنت ) على النمط السابق .

**ثانياً: التوقيعات:-**

قبل الحديث عن التوقيعات – بدايةً وخصائصَ – نود أن نتريث بعضَ الشيء ؛ لنعرضَ مادة (وقع) على معاجمنا اللغوية ، ثم نعرض حديثاً يقدم إطلالةً متكاملةً عن التوقيع اصطلاحاً .

بالنظر إلى التوقيع (لغة) فإنه – بعد حذفَ (أل) التعريف – مصدرٌ رباعيٌ من الفعل (وقَّع) ، وفيه يقول صاحب اللسان (٣٠):– هو إلحاق الشيء في الكتاب بعد الفراغ منه ، وقيل "توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب بحيثُ يُجْمِلُ – بين تضاعيف سطوره – مقاصد الحاجة ، وهو مأخوذ من توقيع (الدَّبَر) ، ظهر البعير فكأن الموقِّعَ في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كُتِبَ فيه مايؤكده ويوجبُه وقيل :هو مايوقَّع في الكتاب .

ما مضى من حديث كان عن معنى التوقيعات لغةً حيث أفادت الأقوال السابقة أنه

توقيع الكاتب في الكتاب سواءً أكان ضرورياً أم غير ضروري .

أما عن معناها في الاصطلاح فهي فن بديعٌ من فنون النثر الأدبي ، ولون رائعٌ من ألوان الكتابة ، قديمٌ في الأدب الفارسي ، ثم نُقِل إلى أدبنا العربي في صدر الإسلام يشير إلى ما يُوقّعُ به الخليفة ، أو الوزير أو الوالي على مايُرفع إليه من شكوى أو تظلم أو يقدم له من رجاء ، أو ما يتشاور فيه من أمر ، إذ تتضمن عباراتٍ موجزةً بليغة ، تعوّد ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها على مايقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية ، وشكواهم ، فحاكاهم خلفاء بني العباس في هذا الصنيع .

على هذا النحو فلقد شاعت بين الناس فكتبها الكتابُ ، وحفظوها ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص ؛ لما تحكى من قصة الشاكي ، وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيهاً لها برقاع الثياب .

وبالنظر إلى بداياتها الفنية فيقال (٣١): إنها عرفت منذُ أيام عمر بن الخطاب إذ نُسِبَ إليه توقيعُ على كتاب سعد بن أبي وقاص – وقد استأذن في بناءِ بيتٍ – وهو والي على العراق فكتب : " **ابنِ مايكنُّك من الهواجر ، وأذى المطر** ".

هذا ولقد زعم قومٌ أن التوقيعات فنٌ أخذه العرب عن الفرس ، لكن چورچي زيدان (٣٢) يرى أنها عرفت منذ عهد الخلفاء الراشدين ، وعندما وقع -أيضاً- لعمر ابن العاص عامله على مصر جواباً على كتابٍ كتبه إليه " **كن لرعيتك كما تحبُّ أن يكونَ لك أميرك**" . ، وتشكّى قوم لعثمان بن عفان ، وذكروا أنه يضرب أعناقهم ، فوقع في ذلك الكتاب " **فإن عصوك فقلْ : إني بريءٌ مما تعملون** " وأرسله إليه.

على كل فلقد كثرت التوقيعات عامة في الدولة العباسية ، ونُسِبَت إلى كثيرٍ من الخلفاء كالسفاح والمنصور والمهدي والرشيد والوزراء كجعفر بن يحيى البرمكي الذي يعد من أوائل الذين أثرت عنهم التوقيعات ، لقد دارت في الكتب الأدبية توقيعاتٌ كثيرةٌ أثرت عن كلِّ خليفةٍ ، وكل وزير عباسي ، وفي هذا ما يدل تمام الدلالة والوضوح على استحسان الكثيرين من الكتابٌ والوزراء لهذا الفن....!

**أشكـــالها:**

تعددت التوقيعات ، وتنوعت أنماطها لكنه قد يجمعها خيطٌ أو اتجاه فني يتمثل في الاقتباس ، وكثيراً مايكون آيةً من القرآن الكريم ، أو حديثاً نبوياً ، أو حكمة من الحكم أو بيتاً من الشعر .

**خصائصها:**

تتضمن التوقيعات الكثيرَ من السمات الفنية لاسيما الأسلوبيةُ فهي تعتمدعلى الإيجاز والقصر ، وبعضَ المحسنات البديعية كالجناس والمطابقة ، وكذلك تعتمد – أحياناً– على الاقتباس .

وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى علبت – على توقيعاتهم – روعةُ الإيجاز ، وقوةُ التعبير ، وجمالُ التصوير ، وشدةُ التأثير ، ولطفُ الإشارة .وكانت توقيعاتهم تتضمن –أحياناً – مثلاً أو حكمة ، أو آية من القرآن ، أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر.

وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ، ويعنون بجمعها ، وقد كانوا يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهماً.

**نماذج على التوقيعات**

لم تقف التوقيعاتُ على يد الخلفاء فقط، بل رأينا الوزراء والأمراء كلٌّ أدلى بدلوه فمن الخلفاء نقرأ توقيعَ السفاح في كتاب جماعة من "بطانته يشكون احتباس أرزاقهم :" **من صبر في الشدة ، شارك في النعمة**، كذلك نقرأ توقيعه إلى قوم من " أهل الأنبار شكوا إليه منازلهم التي أخذت منهم إذ أدخلت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها ، فوقع : " **هذا بناءٌ أسّس على غير تقوى** " وأمر بإعطائهم الأثمان ، كما نقرأ توقيع المهدي لشاعر :" **أسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك** " وكتب صاحب أرمينيا إلى المهدي يشكو سوءَ طاعة رعاياه ، فوقع في الكتاب : " **خذْ العفوَ وأمرْ بالعرفِ وأعرضْ عن الجاهلين** " وشكا بعضهم إليه إهمال عامله على خرسان ، فوقع على شكواهم :

" **أنا ساهرٌ وأنت نائم** " وأرسله إليه ، وتوقيع الرشيد على رسالة لوالي خراسان : " **داوِ جرحك حتى لايتسع** "

وإلى عامله على مصر :" **احذر أن تخرب خزانتي ، وخزانة أخي يوسف ، فيأتيك منه ما لا قبل لك به ، وعند الله أكثرُ منه** " . وكتب ابن هشام إلى المأمون يتظلمُ من أمرٍ فوقع على كتابه : من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه ، فأيُّ الرجلين أنت ؟" وتوقيع المأمون على قصة متظلم :" ليس بين الحق والباطل قرابة".

وشكا أهل الكوفة إلى أبي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم ، فوقع على كتابهم : " كما تكونون يُؤمَّرُ عليكم " ووقع على قصة رجل شكا عيلة : " **سل الله من رزقه**"

ومن الوزراء لم نجد وزيراً لم يضارع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكي " وكان إذا وقَّع نُسِخت توقيعاته ، وتدورست بلاغاته " وحكى علي بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم فوقع في ألف قصة ونيف ، ثم أخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب ، وكتاب الدواوين فما وجد فيها شئ مكرر ، ولاشئ يخالف الحق "وقال ابن خلدون : وكان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها ، فكان البلغاء يتنافسون على توقيعاته في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباعُ كلّ قصة منها بدينار "

ومما رواه له الجهشياري - من توقيعاته - توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه " العدوان أوبقه ، والتوبةُ تطلقه " وتوقيعه على كتاب لعلي بن عيسى بن ماهان يعتذر فيه عن أشياءَ بلغته عنه :" حبَّبْ إلينا الوفاءَ الذي أبغضته ، وبغَّض الغدرَ الذي أحببته ، فما جزاءُ الأيام أن تحسنَ ظنَّك بها وقد رأيت غدرانها ووقعاتها عياناً وأخباراً "

ومن توقيعاته توقيعُه لمحبوسٍ : " ولكلِّ أجلٍ كتابُ " ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : " لقد كثرَ شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت .

واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغةِ المحكمةِ ، فمن ذلك توقيعه

على قصة مظلوم " كفى بالله للمظلوم ناصراً " وتوقيعه على كتاب لنعيم بن خزيمة بن خازم : " الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جري الجواد ، فهناك كشفت الحيرة قناعَ الشك فحُمد السابق، وذمَّ الساقط " .

**ثالثاً : الانشاء المرسل أو أسلوب المؤلفين :**

ونحن في معرض حديثنا عن الكتابة نود أن نشيرَ إلى ظهور ضرب من الإنشاء قد ازدهر في العصر العباسي الأول ، سُمّيَ الإنشاء المرسل في تأليف الكتب أو كتابة المقالات الطويلة في الوصف ، أو الفلسفة إذ يختلف شكلاً ومضموناً عن أسلوب المراسلات .. حيثُ كان أقرب إلى الخطابة أو الشعر منه إلى الأسلوب المتناسق الذي يقتضيه الاسترسالُ في وصف موضوع طويل متسلسل .

هذا ولم يزدهر الأسلوب المرسلُ إلا في العصر العباسي الأول ؛ لاضطرار الناس إلى التأليف من عند أنفسهم ، بأن يدونوا أفكارهم ، أو ينقلوا أفكار سواهم من اللغات الأخرى. وأشهر من فعل ذلك في هذا العصر عبدالله بن المقفع في نقل كتاب "كليلة ودمنة" وغيره من الفارسية القديمة (الفهلوية) إلى العربية حيث كان ابن المقفع ضليعاً في الفارسية ، عالماً بتراثها وآدابها ، متمكناً من أساليبها ، ماهراً بأدواتها ؛ لأنها لغته ولغة آبائه كما يعرف اللغة اليونانية .. نشأ في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، وهو حافلُ بالأدباء والشعراء ، فبرع في اللغة العربية ، وآدابها ، وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية ، ولما نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية ، جاءت عبارتُه شاملة للبلاغة والسهولة . وقد تحداها من جاء بعده ؛ لأنه أقدم من حُفظ إنشاؤه في الموضوعات الأدبية باللغة العربية .

وكتاب كليلة ودمنة أقدمُ ما وصل إلينا من الإنشاء المرسل ؛ نظراً لما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره أو ما بعده من كتب الأدب ، وأغلب الظن يدفعنا إلى القول إنه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الأخرى التي كان يعرفها ابن المقفع مع اقتدار خاص فيه على مثل ذلك الأسلوب ، وقد قلَّ من جاء بمثله بعده ، ولم يأت أحد بأحسن منه في بابه مع مابلغ إليه العلمُ من الرقي

في العصر العباسي ، وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدلك على الإنشاء قريحة خاصة كقريحة الشعر لا يصدر إلا عن ملكات خاصة وطاقات فنية عالية.

**سمات الكتابة في هذا العصر:**

اتسمت الكتابة الفنية سواءً فى الأسلوب أو في اللفظ والمعنى أو في الخيال بعدة خصائص نذكرُ منها :

**أولاً : من حيث الصور والأخيلة :**

رأينا التأثر بالحضارة الحديثة والبيئة الجديدة ، فجاءت الصورُ جميلةً ، والخيال قوياً ، كما ظهر الخيال القريب والبعيد والتشبيه المباشر في توضيح الفكرة وإبرازها .

**ثانياً : من حيث المعاني والأفكار :**

جاءت المعاني عميقة ودقيقة ومتنوعة وشريفة وواضحة حيث ظهر أثر الثقافات الأصيلة والمترجمة فيها ، كذلك وضح التأثر بالفلسفة والمنطق بما يتضمنان من أدلة وإقناع وكثرة استشهاد واستدلال منطقي

كما ظهر الميل الواضح للإيجاز في أول العصر ، ثم آثروا الإطناب والاستطراد ، والميل للفكاهة في وسط وآخر العصر نظراً لاتساع الثقافة من ناحية ولاكثارهم من ترادف الكلمات وازدواج الجمل من ناحية أخرى كما رأينا عند الجاحظ. هذا ولقد جاءت الأفكار مرتبةً ومتسلسلةً وقد شاع فيها روحُ المنطق .

**ثالثاً : من حيث الألفاظ والعبارات :**

١- ظهر التنوع بين الايجاز كالتويعات والمساواة والاطناب كما في الرسائل وكذلك ظهر التنوع في تخير الأساليب فهى جزلة حيناً وعذبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى إختراع المقدمات في أوائل الرسائل ، وبعض المنشورات والعهود وإلى تنويع عبارات البدء والختام في الرسائل كما ظهر الاهتمام بالألقاب لتفخيم الخلفاء والرؤساء على الفرس ، واستعملت عبارات الدعاء كأطال الله

## من أعلام (٣٣) نثر هذا العصر ومذاهبهم

### أولاً: ابن المقفع

**نشأته:** هو روزبة بن داذويه ثمرة من عناقيد الثقافة الإسلامية ، وزعيم الطبقة الأولى في عهد المنصور رغم فارسيته ، وما أشيع عن زندقته ، ولد بجوزستان بفارس في قرية تسمى جور عام ١٠٦ أو ١٠٧ هـ من أب فارسي كان يعمل في دواوين الحجاج ابن يوسف ، ومات مجوسياً فنشأ ابنه على ملته ، بيد أنه استعرب سريعاً ، لاختلاطه بمواليه آل الأهتم التميين ، وهم أهل لسن وفصاحة ، وأدب وبيان ، ومواقف يهزون فيها أعواد المنابر ، ويثيرون إعجاب الناس ، ويجعلون الكلام الملفوظ دراً ، وقد أخذ عنهم ، وتلقى منهم ، وتأثر بهم ، حتى كأنه قد ارتشف أفاويق البيان ، وامتزجت بدمه فصاحة اللسان ، على الرغم من أن العربية ليست أصيلة فيه ، ولا كان عرقها يمتدُّ في آبائه وأجداده ، ثم نشأ في البصرة ، وقد عاش بها .

**ثقافته ومعاصروه:** كان فيمن اتصل بهم ابن المقفع وتأثر أدبه بهم واستمد علمه منهم وسار على نهجهم عبدالحميد الكاتب المؤسس الحقيقي للنهضة الإنشائية وباعثها منذ أواخر الدولة الأموية إلى آخر عهد بني العباس ؛ لأن طريقته كانت تقوم على :

١- الجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية واليونانية وقد نقل إلى العربية التي كان لثقافتها الحظ الأكبر على لغته خير ما جادت به الثقافات والقرائح.

٢- عنايته بالأخذ عن الأعراب والاندماج فيهم ومخالطتهم مخالطة صيرته ابن البادية إذ أنها منحته معجماً أصيلاً في اللغة أعانه على ترجمة الكثير من موهبته الأدبية ... أجل فلقد أتاحت له هذه الحياة أن يروي عن الرواة الشعر المنحول والكلام الجيد والأسلوب الرصين . وهذه العوامل كانت من أهم الأسباب في تكوين شخصيته الفذة وعبقريته النادرة ، وحجته القاهرة ، وبلاغته الباهرة .

### جهوده البلاغية:

إن أقل ما يوصف به بين كتّاب عصره أنه كان أمة في البلاغة العربية ، إذ توخى رصانة القول ، وشرف المعنى الذي أرسله على سجيته وتركه يطلب لنفسه الألفاظ

حيث جاءت سهلة، كما تآزر الأسلوب فجاء رشيقاً، حتى ذاعت طريقته في توخي السهولة ، وسلامة التعبير مع العناية بجودة المعنى وفصاحة الجملة. وسار على دربه من جاء بعده من الكتاب الفحول . لقد كان واحداً من بلغاء العرب .وقد تميزت بلاغته بأنها عربية الجذور ، إسلامية الأعماق هذا ولم تقف المسألة عند الأسلوب البلاغى بل كان ممن ثبتوا الأسلوب الكتابى العباسي وقد رفع قواعده ، وهو أسلوب يقوم على الوضوح حيث جاءت العبارات مبنيه بناءً فنياً يقوم على المزاوجه والتقسيم ، كما تعتمد العبارة على الأسلوب الشرطي وهذا يدل على التفكير المنطقي المبني على مقدمات أو معطيات سليمة لابد أن ينتهى إلى نتائج صحيحة وأدلة مقنعة.

**طريقته فى الكتابة:**

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن ابن المقفع يعدُّ الممثل الحقيقى للتطورات النثرية الجديدة والمؤلف الأول للإنشاء الأدبي فى اللغة العربية حيث كانت له طريقته الخاصة وهي التنويع ، وتقطيع الجمل ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة والعناية بالمعنى.

أما عن خصائصه الفنية ، أو مذهبه الأدبي فإنه

**من حيث الألفاظ** : يتميز بأنه لم يحفل بزينة اللفظة أو بهرجتها إلا إذا جاء منه اضطراراً في حنايا سطوره فقد جاء عفو الخاطر .. من هنا فقد كان صاحب الأسلوب الجديد السهل الممتنع الذي يخضع للمعنى العميق والهدف الأنيق خضوعاً كاملاً حيث أعجب بالأسلوب القرآني على الرغم من زندقته فاستعار من ألفاظه ومعانيه قصص "كليلة ودمنة " ، ونوَّع بين الأساليب الخبرية والإنشائية للتشويق .

**ومن حيث المعانى والأفكار:** فلقد جاءت المعاني غزيرة إذ لعبت دوراً كبيراً في تنويع أو تطويع الأسلوب عنده بين الإيجاز والاقتصار الشديد . فالمعاني تؤدي أداء فصيحاً ، أما الأفكار فلقد جاءت دقيقة ومنطقية ومرتبة مترابطة تتنوع بين الأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية التى لم تكن سائدة بين كتاب عصره وبذلك كان له الفضل الكبير على النثر الفني .

**وأما عن صوره وأخيلته** : فلقد استطاع المواءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوقه

العربي المكتسب مما يشهد له بقدرته الاندماجية على الخلق والتأصيل والتجديد في البيان العربي. ثم إن اعتماده على التشبيه الضمني الذي يطلق الفكرة ويبرهن عليها بالدليل في التدليل على أحكامه هو ربط بين العقل والخيال ، كما يهدف من خلاله إلى توضيح الفكرة ، كما كانت الاستعارة عنده غاية في تحميداته التي كان يفتتح بها رسائله السياسية التي كان يعظم فيها الدين الحنيف.

**مؤلفاته:** ترك ابن المقفع آثاراً خالدة من الأدب الرائع ممثلة في رسائله العديدة وكتابيه الأدب الكبير ، والأدب الصغير ورسالة الأخلاق ، وكليلة ودمنة حيث نقل كثيراً من الكتب الفارسية إلى العربية ، ولكن فقد معظمها مثل (خداى نامة) وهو كتاب في سيرة الملوك .

كما ظهرت طبقة ثانية في عهد الرشيد وابنيه الأمين والمأمون نذكر منها :

**ثانياً: عمرو بن مسعدة :**

هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أحد ملوك جرجان، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية، على شاكلة الفرس، واعتنق الإسلام في زمن بني أمية ، ودخل ابنه سعيد جد عمرو في الدولة العباسية، فكان واحداً من دعاتها ثم حدث أن ندب خالد البرمكي ابنه مسعدة للكتابة بين يديه في وزارته للسفاح، والمنصور، وظل يعمل في دواوين الأخير حتي قلده الموريان وزيره رياسة ديوان الرسائل ، ولما رزقه الله بابنه عمرو عني بتربيته حتى يصلح للكتابة . هذا ولقد كُني عمرو بأبي الفضل.

وفي زمن الرشيد نجد جعفر البرمكي يجعله كاتباً للتوقيع بين يديه، ثم يتصل بالفضل بن سهل القائم علي تدبير شئون المأمون، فيضمه إلى ديوان الرسائل الذي كان أحمد بن يوسف يتولاه قبل أن يرفع إلى مرتبة الوزارة.

إننا لا نعدو الواقع إذا قلنا: إن عمرو بن مسعدة استطاع أن يبهر معاصريه ببلاغته التي كان جعفر بن يحيى البرمكي إحدى متابعها لاسيما إنها تقوم علي دعامتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق، والوضوح البالغ وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة .

لقد كان يقول للكتاب: إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلُها توقيعاتٍ فافعلوا، وكأنما استقر ذلك في نفس عمرو فإذا هو يُحيل كتبه في مختلف الأغراض إلى مايشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً في القول. وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به، وكثيراً ما كان يوصى به الكتاب من حوله .

لقد تمهل في تأنقه في اختيار لفظه حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق ، والتدقيق في اختيار الالفاظ، وإنه لايعمد إلى الإطناب بقدر ما كان يعمد إلى الاقتصاد حتى قيل عنه : إنه كان بليغ العبارة ، وجيزها ، شديد المقاصد

وأخيراً تظهر طبقة ثالثة في عهد المأمون حيث كان على رأسها الجاحظ منهم محمد ابن عبدالملك الزيات وإبراهيم الصولي ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب وغيرهم.

**ثالثاً: الجاحظ:**

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، الليثي الكناني . ففي هذه الماجدة نشأ أصلُ الجاحظ ، وترسخت أعراقه، وإليها كان انتماؤه وانتماء آبائه وأجداده حتى قيل إنه كان مولى أبي القلمّس عمرو بن قلع الكناني ثم الفُتيمي .

أما لقبه " الجاحظ" فقد جاء من قبل أنه كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين أى بارزهما ، وربما لقب " بالحدقى " أيضاً ؛ لأنه كان ناتئ الحدقتين .

ولعل الجاحظ كان يريد أن يقول في إثر ذلك : فلم لايدعوني الناس " عمرو بن بحر " بدل هذا اللقب البغيض ، وله الحق في ذلك فما من إنسان كائناً من كان إلا وهو يبغض من يدعوه بلقب لاسيما إذا كان هذا اللقبُ يشير إلى عيبٍ في صاحبه إن خَلقاً وإن خُلقاً ...

ولو علم الجاحظ أن لقبه هذا سيكون فيما بعد عصره نعتاً من أجلّ النعوت وأنه سيكون صفة من أشرف الصفات التي عمل الكثيرون من عظماء الرجال وأكابر الرؤساء وخواص أهل الفضل على أن يكون لهم شرف الانتساب إليه ، ومجد الاتصاف به لسره من لقبه أكثر مما أعجب من اسمه حيث صار هذا اللقب شعار مدرسةٍ جامعة لفنون الآداب والبلاغة .

من هنا لانستغرب عندما يقول عنه بن النديم إنه كان حسن التأليف مديح التصنيف

وقد ذكر له عدة مصنفات.

حقاً لقد ملأت شخصيته العظيمة صفحات تاريخ الأدب العربي وذلك لما حاز عليه من عقل واسع ، وثقافة بعيدة الغور ، وقد ظهرت بوضوح في مؤلفاته .

**مذهبه الأدبي:**

يُعدُّ أدب الجاحظ الذي جاء نتاج عقلية خصبة مرآةً صادقةً لثقافته الواسعة التي كادت تستوعب جلَّ علوم عصره ، فلشخصيته وما تفردت به من حسٍّ أدبيٍّ مرهف جعله يميل إلى اتباع نوع خاص من الأسلوب اشتهر به وعرف عنه وهو يجمع بين التلوين العقلي أو الفكري والتلوين الموسيقي ،لأن مخزونه قد اشتمل على كثير مما يتصل بأنواع الثقافة المختلفة في عصره ، كما اشتمل -أيضاً- على وصف لخفايا المجتمع الذى عاش فيه وظواهره وما فيه من أخلاق وعادات وتقاليد مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومكدين ورقيق وقيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء ، ثم ما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقوادوأمراء ، وكذلك مايتصل بالحيوان والنبات والعرب والعجم وفضائل الشعوب :فنحس في أغلب كتبه بتيار منطلق من فكر ينقل الواقع بكل أشكاله وألوانه.

لقد تناول الجاحظ الموضوعات التي تقترب من الحياة التي خبرها لكونه قد اتسم بالتصرفات العقلية المتزنة مازجاً الجد بالهزل غير قاصر كلامَهُ على الموضوع الذى يُعالجه ، بل يستطرد إلى موضوعات جانبية ثم يعود إلى موضوعه الأول الذى كان يعالجه. وقد أثنى عليه ابنُ العميد الكاتب بقوله : إن كتب الجاحظ تُعَلِّمُ العقل أولاً والأدب ثانياً.

والجاحظ يُعنَى بأسلوبه عناية فائقة واضعاً نُصبَ عَيْنَيهِ أن تأتي الألفاظ موافقة للموضوع الذى يتكلم فيه أو كما يقول فى كتابه "البيان والتبيين": مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهو يحاول أن يستخدم ألفاظ كل طبقة من المجتمع يتحدث عنها ميلاً إلى الواقعية والدقة وشدة التأثير ، ولذلك يختار للمعنى لفظه الخاص به دون استخدام

ألفاظ عامة مثل : فَقْأ العَيْنَ ، وهَشَمَ الأنْفَ ، وهَشَم السِّن ، ودَقّ العظم. وهو لايتحرج - لدقته - من استخدام ألفاظ واقعية حرصاً على نقل ماينطق به الناس في عالم الواقع وإن نَفرَ منها الذوقُ ، أو خَدَشَت الحياء . ونراه حينما يتحدث عن البخلاء يستعمل ألفاظ : القيراط ، والدانق ، والربع ، والنصف . وحينما يتحدث عن الطباخين يستعمل ألفاظ : الشّواء ، وتعرق اللحم ، والفالوذج ، وألفاظه تارة جزلة رصينة ، وتارة عذبة رشيقة.

ولعل الميزةَ الكبرى التي يتسم بها أسلوبُه هي الميْلُ إلى الازدواج ، أو كما سَمّاه بعض مؤرخي الأدب " التلوين الموسيقي" . ففيه تتوازن العبارات توازناً دقيقاً بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها كما في السجع .

وبجانب المزاوجة أو التلوين الصوتي الذي امتاز به أسلوبه، ظهر ميله الشديد إلى التكرار والجُملِ الدعائية ، والقدرة على التوليد للمعاني والاشتقاق والإلحاح على المعنى بصلة ، وقد ساعده على ذلك تمكنهُ من علم الكلام وقراءته الكثيرة لعلم المنطق وقوة عقله .

## كتبه ومصنفاته:

يعد الجاحظ من أكبر الأدباء العرب الذين أغنوا المكتبة العربية بمؤلفاته وبحوثه المختلفة التي تربو عن المائة وقيل إنها بلغتماينيف على ثلاث مئة وخمسين كتاباً رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤ وهي - وإن لم تكن كلها له- تؤلف موسوعةً علميةً وأدبيةً . ومما يؤسف عليه أنها لم تكن تصل إلينا كلها ، فقد ضاع منها مثلما ضاع من تراثنا القديم ، وأما ما وصل إلينا فقد طبع معظمه ، ولايزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً في خزائن شتى بين مكتبات الشرق والغرب .

كذلك فإنه قد يتعذرجمعه تلك المؤلفات في فئات مرتبة على حسب مادتها ؛ لأن الكثير منها مختلف الموضوعات ، متعدد المعاني ، ومن ثم سوف يجيئ تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب .

أ - فى الفلسفة والاعتزال والدين:

- " كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال ، و" كتاب الاعتزال وفضله " ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً " فضيلة المعتزلة". "والذى ردَ عليه ابن الراوندى بكتابه " فضيحة المعتزلة"، و " كتاب خلق القرآن". و"كتاب آى القرآن"، و" كتاب الرد على اليهود"، و " كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ". وهو يبحث فى تعليل الأشياء الطبيعية وما فى الكائنات من الدلائل على وجود الصانع ، إلخ...

ب - فى السياسة والاقتصاد:

- " كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب "، و"رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة" ،و" رسالة فى الخراج ". و" كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ". وكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب " الخ ...

جـ- في الاجتماع والأخلاق:

- " رسالة فى إثم السكر" ،و"كتاب أخلاق الشطّار" ،و"كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة" ،و"كتاب خصومة الحلول والعُبور" ،و"كتاب البخلاء"...

د- في التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات:

- " كتاب الأخبار وكيف تصحُّ" ،و" كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية" ،و" كتاب الأمصار"و" رسالة في الكيمياء " ،و" كتاب المعادن " ،و"كتاب نقض الطب" ،و"كتاب الحيوان".

هـ - في العصبية وتأثير البيئة:

- " كتاب القحطانية والعدنانية" .و"كتاب العرب والعجم" ،و"رسالة فى فخر السودان على البيضان" ،و" كتاب مفاخر السودان والحُمران" ، إلخ ...

و- أهم مؤلفاته فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية:

١- البيان والتبيين:

وهو يدور حول مفهوم الأدب والبلاغة والخطبة والخطباء ، والأحاديث والنوادر وهو مطبوع فى أربعة أجزاء حيث تظهر فيه نزعة الجاحظ العربية ، وميله الشديد إلى

البلاغة . على كل فهو يضيف فى كتابه إلى الثقافة العربية عناصر مختلفة مما تقدمة الثقافات الأخرى اليونانية والهندية

إننا لا نعدو الواقع إذا قلنا : إن كتابه مزيجٌ متعادل من مجمل ثقافات مختلفة غلب عليها الطابع العقلي أو الفكري .

**٣- كتاب الحيوان :**

يشتمل هذا الكتاب على وصف طبائع الحيوان وقد أودعه صاحبه كل ما شاء إبداعه من الحكمة والأدب والظرف ، ودون فيه كل ما تفرق في كتب العلم والأدب ، وما أنتشر على أفواه الناس من الأشعار والأقوال ، والأحكام والأسماء عن الحيوانات وعلاقتها ببني الإنسان وذكر الجاحظ في مواضع عده من الكتاب ما في طبائع الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة في خلقه .

هذا ولقد طُبع الكتاب مراراً فى عدة أجزاء تختلف فقط باختلاف طبعاته ، طبع بمصر في سبعة أجزاء سنة ١٩٠٧ ، ثم طبعة أخرى أنيقة ، حقق الكتاب فيها ، وشرحه عبدالسلام محمد هارون سنة ١٣٥٧ هـ . (١٩٣٨م).

**ومن أشهر رسائله :**

١- رسالة التربيع والتدوير : وهي رسالة يسخر فيها من أحد الكتاب في عصره سخرية لاذعة وقد طبعت عدة طبعات .

٢- رسائل أخرى قصيرة تربو على المائة وطبعت في عدة مجلدات منها :

" رسالة الحاسد والمحسود ، مناقب الترك ، فخر السودان على البيضان ، تفضيل النطق على الصمت ،طبقات المغنين " إلخ ...

# هوامش ومصادر الفصل الثاني

١-راجع : جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت ج٣ ص٨. ٩ المكتبة العلمية لبنان . حيث اختصرناها.

الكهف : الوزر والملجأ

٢- ----- : يريد العلويين .

٣- -----: شاهت : قبحت

٤- أسفوه : أغضبوه

٥- السبئية : أتباع عبدالله بن سبأ وهو يهودي تظاهر بإعتناق الإسلام ، وهو الذي أشاع فكرة فضل عليّ على جميع الصحابة ، وأن روح الله حلت به ، واتبعه كثيرٌ من الشيعة ، وكان يريد بذلك الكيد للإسلام وتفريق المسلمين .

٦- راجع : جمهرة خطب العرب ج٣ ص ٩ ، ١٠.

٧- أعطاه : والاسم النحلة .

٨- راجع : جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ١٤

٩- ----- : جاء في العقد الفريد ج٢ ص ٣٥ "أبو العيناء المحدث.

١٠- راجع : جمهرة خطب العرب ج٣ ص ٧٧.

١١- النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى .

١٢- راجع : جمهرة خطب العرب ج٣ ص ١٢٢ .

١٣- راجع : العصر العباسي الأول ص ٤٥٣ والربيع هو حاجب المنصور .

١٤- -----: يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .

١٥- راجع : العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٤٥٤ نقلاً عن الجهيشاري.

١٦- راجع : المصدر نفسه ص . ٤٥٥

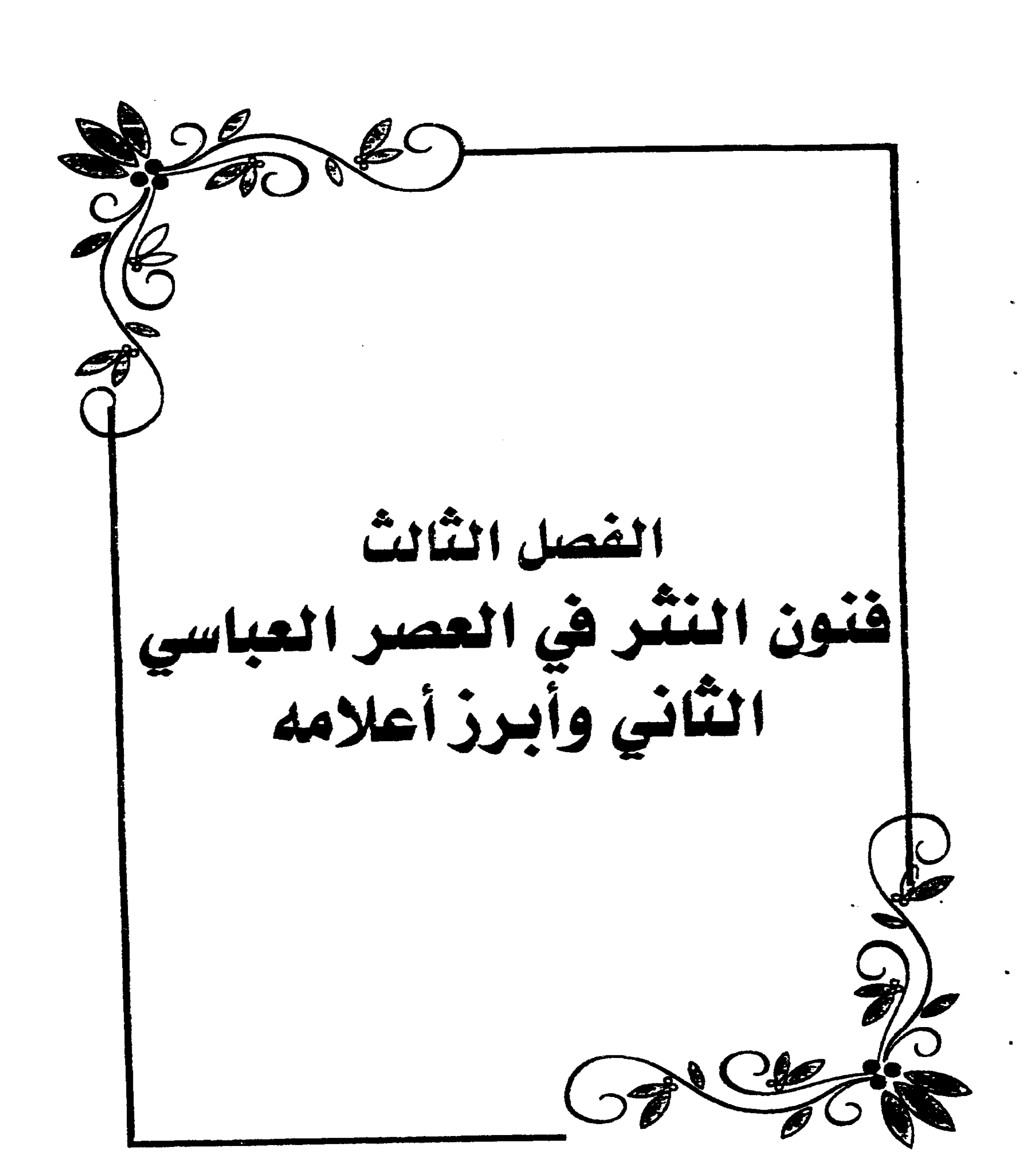
١٧- يقصد بالكتابة هنا الفن البليغ من النثر الذي أداته القلم وعماده التجويد ..
هذا الفن – عوداً الكتابة الإنشائية أو الفنية أو الأدبية التي يتأنق فيها الكتاب ويهتم بها الأدباء ويدرسها النقاد لإبراز ما فيها من قيم جمالية إذ يعدونها مظهراً من مظاهر البلاغة والبيان

١٨-راجع : العصر العباسي الأول ص. ٤٦٦

١٩- -----: ينسب إلى الرشيد انه أول من أمر أن تبتدئ مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي (ﷺ)راجع النجوم الزاهرة ج٢ ص ١٠٣ .

٢٠- انظر : جمهرة رسائل شالعرب ج٣ ص ١٦٩

٢١- ----: صفق يده بالبيعة ضرب يداً بيد دلالة علي التزامها.
٢٢- انظر : جمهرة رسائل العرب ج٣ ص ٢٢١
٢٣- راجع : العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ط٤ ص ٤٨٤
٢٤- راجع : تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٠
٢٥- انظر : جمهرة رسائل العرب ج٣ ص ٧٩
٢٦- راجع : المصدر نفسه ج٣ ص ١٣٦
٢٧- راجع : البيان والتبيين ج٣ ص ٧٤
٢٨- راجع : جمهرة رسائل العرب ج٣ ص ٦٧
٢٩- راجع : العصر العباسي الأول ص ٥٠٦
٣٠- انظر : لسان العرب مادة "وقع"
٣١- ينظر : في الفن ومذاهبه ط ٤ للدكتور شوقي ضيف ص ١٣١
٣٢- ينظر : تاريخ الآداب العربية ط٢ ج٢ ص ٣١٢
٣٣- رجعنا في ترجمته إلى : المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر المكتبة العصرية بيروت ج٤ ص٢٤٢
وطه حسين في من حديث الشعر والنثر ص ٤٦
وشوقي ضيف في العصر العباسي الأول ص ٥٠٧
٣٤- رجعنا في ترجمته إلي : معجم الأدباء ج١٦ ص ١٢٧
وزهر الآداب ج٣ ص ٢٤٩
٣٥-رجعنا في ترجمته إلي : المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٤ ص١٠٩.
ومعجم الأدباء ج١٦ ص ١٢٧
والفهرست ص ١٧٥
والعصر العباسي الثاني ج٢ ص ٥٥٨
وأبو عثمان الجاحظ دار الكتاب اللبناني بيروت للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.



# الفصل الثالث

# فنون النثر في العصر العباسي الثاني وأبرز أعلامه



الترف الشنيع الذي انحدر بهم إلى درك المسألة والانحلال والفساد الاجتماعي ، هذا بالإضافة إلى العقبات أو العراقيل التى وقفت في وجه هذا الفن حيث يأتي في مقدمتها ضرورة مرور عام كامل على الخليفة الورع في الحكم ، وأن يكون المكان المسجد الجامع في سامراء ، وأن تشتمل خطبه على السجع المنمق والجمل المرصعة أو المحشوة بشتى صنوف الألوان البديعية التي تنبو الآذان عن سماعها..!!

إنه على الرغم من ضعف الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء لكنها ظلت مزدهرة في المساجد المفتوحة ليلاً ونهاراً ، ودائماً ما يوجد فيها الناس للتدريس حيث كانت تعقد حلقات الخطباء والوعاظ ، وكان الناس يلتفون حولهم حلقات للإستماع إليهم.

هذا ويمكننا تصنيف خطباء هذا العصر صنفين . الأول : الرسميون وهم المكلفون بالخطابة في أيام الجمعة والعيدين من قبل الدولة . الآخر : غير الرسميين وهم غير المكلفين من قبل الدولة بالخطابة حيث كانوا يمثلون الشريحة الكبرى من الخطباء.

ثم بالنظر إلى مضمون الخطب التي كان الخطباء يعظون بها فإنها كانت مزيجاً من القرآن والحديث وقصص الأنبياء والمرسلين .

هذا ولقد اختلفت اتجاهاتهم وتوجهاتهم ، فمنهم من كان يقبل على القرآن مفسراً ومنهم من كان يدعو إلى الفرائض والواجبات ووجوب تأديتهما مستعيناً بالقرآن والسنة لاسيما في الدعوة للهجاء، واستنفار الجهود لمحاربة الأعداء حيث اقتضى الأمر بهم إلى الذهاب معهم إلى الجيوش المحاربة ؛ لبث الحماسة وروح التضحية مثل أبي العباس الطبري الذي كان يعظ ويقص على الجماهير في طراسوس . وكان رمضان موسم الوعاظ إذ لا يخلو يوم من أيامه إلا ويوجد واعظ .

وننتقل إلى نهاية العصر العباسي الثاني فنجد الفن الخطابي يبعث من مرقده عاجزاً فنقرأ خطبة لجار الله الزمخشري في كتابه "أطواق الذهب" كقوله في ذم الحرص والجشع" ياعبد الدينار والدرهم في أذن ، عنيقهما ويا أسير الحرص والجشع والطمع متي أنني طليقها ، هيهات يشبعه القرص ، وما هذا الحرص ، ومن ترويه الجرع ، ماهذا الجزع ستعلم غداً اذا تندمت، أن ليس لك إلا ماقدمت ، وإذا لقيت المنون ، لم

ينفعك مال ولابنون ، مايصنع بالقناطير المقنطرة ، عابر هذه القنطرة وما يريد من البهجة والفرحة ، نازل ظل هذه السرحة .

فالناظر إلي هذه الخطبة يرى أن السجع المتكلف يؤكد لنا أن الخطابة-كان شأنها كبقية الفنون الكتابية في ذلك العصر-حيث غلب عليها التصنيع والزخرف البديعي الذي جاء في أغلبه ملوناً للفكرة لا مكوناً ومؤسساً لها .

ما مضى من حديث كان عن الخطابة ، أما عندما نتحدث عن الوعظ والوعاظ فلقد ظهرت في أوائل هذا العصر طبقةً جديدةً من الوعاظ هي طبقة المذكرين حيث أطلقَ عليهم " الصوفيون " ، ويطلق -أيضاً - على مجلسهم "مجلس الذكر" أي ذكر الله وتسبيحه حيث كانوا أتقياء أنقياء مخلصين ، انقطعوا للعبادة فراحوا يعظون الناس في المساجد والزوايا ، وكانت خطبهم تتضمن آي القرآن في بعض الأحاديث مفسرين لها ومعلقين عليها ، مزاوجين بينها وبين مصطلحاتهم الصوفية . هذا ويعد أبو حمزة الصوفي أول من تناول -في مواعظه- هذه المصطلحات والأفكار الصوفية من صفاء الذكر ، وشحذ الهمم وإخلاص المحبة والإمعان في العشق والأنس ، وكان هؤلاء الوعاظ يجذبون إليهم الناس أكثر مما يجذبهم الوعاظ العاديون ؛ لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ؛ ورفض كل متاع دنيوي زائل وتفانيهم في حب الله .

وكان من نتاج هذا الأمر أن نسجت -على المنوال الشعبي - قصص وحكايات كثيرة لهم تصور جهادهم مع النفس وشهواتهم وكيف كان الصوفي يتكبد أو يتجشم العناء في سبيل ذلك بحيث احتوت القصص والحكايات على ما يلفت نظر الصوفي إليه ، وعليه أن يجاهد من أجل تحمل الأهوال وتخطي المصاعب .

من ذلك يروي عن بشر الحافي المتصوف من أنه مرَّ ببعض الناس فسمعهم يقولون هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولايفطر إلى في كل ثلاثة أيام مرةً ، فبكى حين سمعهم يرددون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يبكيك ؟ فقال : إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملةً ، ولا أني صمت يوماًولم أنظر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرماً . ويحكى عن السرى السقطى

المتوفي سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمةً ، فإذا أصبح جاءت عصفورة وأكلت تلك اللقمة من يده ؛ وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناولَ أبداً شيئاً من الإدام . (١). ويروى ابن اخته الجنيد أنه دخل عليه يوماً ، فوجده يبكي ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت:يا أبت هذه ليلةٌ حارةٌ ، وهذا الكوز أعلقه ههنا ، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقال لها : لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته .

والمتأمل فيما سبق يرى أنهما لايتعديان عن كونهما خبرين رمزيين يصوران ما كان عليه السرى من الشظف في العيش والحرمان الشديد حيث إن الرمزية لعبت دوراً بارزاً في المعتقد الصوفي ربما أنها تؤدي إلى غموض الأفكار إن لم تفهم طبيعة التصوف .

على كلٍّ فلقد كان التصوف عاملاً قوياً وباعثاً على ذيوع لون شعبي جديد من الأدب ، وهو لون قصصي ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنفات مثل كتاب "ختم الولاية"(٢) .

غاية الأمر فإن التصوفُ نشر بهذه الحكايات المتصلة بقدرة أصحابه على تحمل أثقال الشظف ، وما اعتقدته العامة فيما جرى على أيديهم من الكرامات حتى صار أدباً شعبياً قصصياً وقد زاع أو دار بين الناس . وهناك لون آخر من هذه الحكايات كان يقص أخبار المتصوفة ، ولعل خيرُ مايصور ماسبق كتابَ " الطواسين " للحلاج في القرنين الثالث والرابع ، وهي أخبار وحكايات عنه بألسنة تلاميذه تحمل أحواله وآراءه ومعتقداته بشكل عام .

### ثانياً:الكتابة الفنية

ازدهرت الكتابة الفنية ازدهاراً كبيراً في هذا العصر ، ولعل هذا راجع إلى جملة عوامل مهمة قد فعّلت النشاط الكتابي ودوره تفعيلاً واضحاً جعلته يتبوأ المكانة السامية أو الرفيعة في ذلك العصر من أهمها:

**الأول**: تنوع الدواوين وكثرتها في العصر العباسي الأول كثرة كان من شأنها أنها صححت الأوضاع، وإعادة رسم الخارطة الأدبية إذ شغلت الكتابة المساحة الكبرى حتى جاء العصر العباسي الثاني الذي يمثل عصر الفتوة الأدبية، والعبقرية العقلية - نذكر من هذه الدواوين التي كانت كثيرة ومتنوعة - ديوان الخراج، وديوان النفقات وديوان الضياع، وديوان الرسائل، وديوان الخاتم.. وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يشرف عليها. وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية. وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم، وكذلك لكبار القواد، وحتى نساء الخلفاء كان لهن دواوين يقوم عليها كُتّاب ينظرون في الدخل والخرج والنفقات." (٣)

والناظر لتلك الكثرة على إطلاقها، وتنوع مراميها، وتعدد أهدافها يرى أنها منابيع صافية، وقد أفاضت فيضاناً عارماً على الساحة الأدبية في ذلك الحين.

**الثاني**: تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب الذين كانوا يعملون بهذه الدواوين حيث أجزلوا لهم الهدايا، وأغدقوا عليهم العطايا والهبات، ورصدوا لهم المكافآت الضخمة، وأقروا لهم الرواتب العالية.. تلك العناية كان من شأنها أنها وفرت لهم أسباب الظفر بالحياة والترف والمتعة، والعيش الرغيد فجعلتهم يوجهون طاقتهم الفكرية والخيالية إلى فنهم لا إلى معايشهم وملابساتها فقط. مثال ذلك أن الزجاج - تلميذ المبرد - جعل له الخليفة المعتضد راتباً في الفقهاء، وراتباً في العلماء، وراتباً في الندماء وراتباً في الكتابة فبلغ راتبه - من الدولة - ثلاثمائة دينار شهرياً.

**الثالث**: أن الكتابة كانت الطريق لشغل المناصب المرموقة في الوزارة، فلا عجب أن نرى الكتاب المنصبين لرئاسة مجموعة من الدواوين أن يكون منهم الوزير الذي يدبر أمور الدولة وإن فاتته الوزارة يصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي البصرة وكثير من الولاة كانوا يتقنون الكتابة مثل محمد بن عبدالله بن طاهر، وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب.

**الرابع** التنافس الشديد بين الكتاب لشغل المناصب السالفة الذكر قد أدّى إلى النهوض بالكتابة حتى بلغ بها إلى الذروة ، وهو تنافسٌ كان من ثماره المرجوة أنه دفع إلى التثقف الواسع بكل ألوان الثقافات سلاحاً يبرزه عندما يشهر أفانين القول ، وأفاويق البيان وتأنق الألفاظ ، وجمال الجمل في مجالس الخلفاء والأمراء . هذا وتأتي على رأس هذه الثقافات الثقافةُ العربيةُ والفقهيةُ والحساب لحاجة الكتاب إليها في شؤون الخراج ، هذا بالإضافة إلى علوم التنجيم والمنطق والهندسة والفلسفة مما جعل (**ابن قتيبة**) يظن بالأخيرة الظنون لاسيما أنهم راحوا يغترفون من منهل علوم اليونان ، وثقافتهم ؛ أعانهم على ذلك ماتوفر لهم كل ما تُرجِم إليهم من القصص والحكم ، وكذلك على ماتُرجِم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين ، وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزودون به ، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم، وكانوا يلتزمون الوضوح ؛ لأن رسائلهم توجَّه إلى العامة ولابد أن تفْهَم ماتسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان ، كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التنميق حتى تنال استحسان من يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والقواد (٤).

**الخامس**: قراءة ثانية في العامل الرابع السالف الذكر واستكمالاً له نرى أن كتاب الدواوين كانوا يوسعون ثقافتهم ما استطاعوا إليه سبيلاً إذ عنوا عناية خاصة بالثقافة الفلسفية حتى إنهم هضموها هضماً نتج عنه أنهم تمثلوها في تعميق أفكارهم فرتبوها ترتيباً منطقياً ، كما اهتموا بمعانيهم عناية تامة تفوق على عنايتهم بالأفكار فراحوا يتعمقون ويستقصون ويحللون حتى ليقول الجاحظ :-

أما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشيًّا ، ولا ساقطاً سوقيًّا ".ويقول أيضاً :

" إن الكتّاب لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور

عثرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني ". (٥)

**السادس:** نتيجة لما سبق فلقد بلغ كتاب الدواوين درجة كبيرة من الإتقان والتنميق والتصنيع حتى صارت - فيما بعد - مدرسة فنية كبرى لاسيما أنها كانت تتمتع بخصائص فنية تجعلها مذهباً أو مدرسة ، وكان يفد إليها طلابها (ويختبرون اختباراً دقيقاً ، فمن نجح في الاختبار وظف فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء، وعمل بين أيديهم ، ويدبج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالته حظوة من رئيس الديوان تم له سعده . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين ، ولاريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة (٦).

**السابع** : امتداداً لما سبق نقول : لقد ظهر مذهب التصنيع والتجميل في بيئة الكتاب الرسميين من أصحاب الدواوين حيث أخذوا يهذبون الألفاظ ، ويبالغون في أناقة التعبير، ودقة أذواقهم حتى انفصلوا انفصالاً تاماً عن أسلوب الازدواج الذي أخذه الجاحظ رأس المترسلين عن سهل بن هارون كاتب البرامكة ؛ وأحد أصحاب خزانة الحكمة للمأمون إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة قوامها السجع والتنميق حتى صار السجع اتجاهاً عاماً في كل مايصدر عن دواوين المقتدر . فليس هناك وزير ولا كاتب إلا ويتخذ السجع في صياغته ، واستمر الحال هكذا حتى جاء ابن العميد وقد سيطر السجع على كتابته سيطرة لا دركاً ولا استثناء فيها حيث احتكم في كتابته إلى البديع من جناس تصوير وطباق .

وقد شغف بالسجع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ولعله جعله - فيما يزعمون - يتسبب في عزل قاضي مدينة (قم) إذ قال يوماً : (أيها القاضي بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم !!.

ويروى الرواة عن ابن العميد أنه قال : خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجهاً إلى أصفهان ، وطريقة (رامين) فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشئ إلا ليكتب إلينا . (كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت في نصف النهار").

ولعلنا لا نجافي الحقيقة حينما نقول : إن هؤلاء الكتَّابَ افتقروا إلى التعبير الصادق عن الشعور إذ قصدوا إلى التكلف في القول وتزيينه، فكان النثر لهذا في نهاية العصر العباسي الثاني نثراً بعيداً عن الصدق وإن كان قريباً من الفن على اعتبار أن الصدق والكذب نمطان أخلاقيان لا شأن للأدب بهما .

**الثامن**: مشاركة البرامكة الأدب والعلم ، واغترافهم من نبع البيان والبلاغة قد جعل كتب التاريخ -تديم الحديث -عن ثرائهم ، وثقافاتهم ، وترفهم الذي دفعهم إلى التألق في حياتهم الاجتماعية فترجمت صداه حياتهم الأدبية ، وخير من يصور ذلك جعفر بن يحيى البرمكي - صاحب الدواوين في عهد الرشيد - فقد أشاد السابقون ببلاغته . يقول الجهشياري : " كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقَّع نُسخت توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته ". ويقول ابن خلدون عنه : "وإن الناس كانوا يتنافسون في الحصول على توقيعاته ؛ ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار". ووصفه ثُمامة بن أشرس فقال :" كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنية عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة " (٧).

وقد كان جعفر يبالغ في تنميق عباراته ؛ وهو تنميق كان يستمده من حياته التي بنيت بناءً شاهقاً من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتَّخذ في عصره مثلاً لتصنيع الخزف في ثيابه ، فكان طبيعياً أن يسقط ذلك على أدبه وبيانه . ولعل أهم مايلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع في كتبه وتوقيعاته.

**التاسع**: إضافة إلى ماسبق فإن ازدهار الحياة العباسية ازدهاراً حضارياً كبيراً كان من شأنه أنه هيأ بغداد أن تصبح حاضرة العالم الإسلامي ، ومركزه الثقافي الذي يعبر عن الحياة الجديدة وما يتصل من زخرف وتصنيع .. ؛ لأن الحياة العباسية كان يقوم على الترف والزينة من تصنيع وزخرف إذ جاء أدبهم صورةً من حياتهم وترجماناً صادقاً لواقعهم .

**أولاً : الرسائل :**

**١- الرسائل الديوانية :** هي رسائل تصدر عن ديوان الرسائل الذي يتولى رئاسته أقوى الكتاب شخصية ، وثقافة ومقدرة فنية حيث تناولت - في مجملها - تصريف جميع شؤون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرغبة ، ومن ولاية عهود ، أو بيعة لخليفة ، أو دعوة إلى الجهاد في سبيل الله ، أو تفويض وزير بالولاية ، أو تنويه بموسم حج ، أو عيد ، أو إصدار أمر بمعاقبة بعض المخالفين للدستور.

ماسبق كان حديثاً عما تتضمنه ، أما عن أجزائها فهي تتكون من ثلاثة أجزاء :

الأول : مقدمة حيث كانوا يودعون فيها أفانين القول وأدق التعابير ، وبخاصة التحميدات ، وما اتصل فيها برسالة الخميس التي كانت تكتب إلى الولايات حين ينتصب خليفة على مقاليد الحكم .

الثاني : الموضوع ويتناول الحديث عما يكلف به الكتاب من قبل خلفائهم .

الثالث : الخاتمة وداثماً ما تتناول الدعاء للخليفة بطول العمر ، وحسن السيرة ، وازدهار الدولة ووفرة الأمن .

من بين أصحاب هذه الرسائل نذكر إبراهيم بن عباس الصولي الذي كتب أغلب ماصدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح حيث كان حظياً عند المتوكل فقلده ديوان رسائله المختلفة . ومن أوائل ما كتب له المنشور الموجه إلى عماله في الآفاق بشأن النصارى ، وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطيالسة والزنانير حيث يبدأ المنشور (٨) قائلاً :" بسم الله الرحمن الرحيم " أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزته التي لا تحاول وقدرته على مايريد ، اصطفى الإسلام ، فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيد به أولياءه ، وكنفه بالبر ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرأ من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبواً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرم أهله بما أحل لهم من حلاله وحرم عليهم من حرامه ، وبين لهم من شرائعه وأحكامه ، وحد لهم

من حدوده ومناهجه ، وأعدَّ لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونَهَى عنه ، وفيما حضَّ عليه فيه ووعظ : ( إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربَى ويَنْهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبَغي يعظكُم لعلكم تذكرُون )".

فالناظر إلى المقدمة يلمسُ - فيها بوضوح - براعةَ الاستهلال التي تهيئ ذهن القارئ لسماع الموضوع والتفاعل معه .. إلاَّ أنه قد يؤخذ عليه مبالغته الممجوجة في صناعته للكلام حيث إن الأشياء لم تأتِ - كما يبدو لي - عفو الخاطر سياقاً بل نجده يفكر ويدقق ثم ينتخب إلى أفكاره من المعاني المطروقة، والألفاظ الجزلة الناصعة ما يتناسب أو يتلاءم معها محدثاً بينهما صنوفاً من التزاوج وحسن التأليف وروعة التجاور وغاية التساوق حتى تبدو قطعاً تتشحُ بروعةِ الازدواج الذى يوازن بين العبارات دون أن يحيلها سجعاً ممقوتاً .

ويجيئ عصر المنتصر فتراه يستوزر أحمد بن الخصيب ، وكان كاتباً وأديباً مما أهَّله إلى أن يسند إليه كتابه الكتب التي تصدرُ عن ديوان رسائله ، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليالٍ خَلَوْن من محرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه إلى الغزو في أرض الروم وفيه (٩) يقول :

" قال عزَّ وجَلَّ آمراً بالجهاد مفترضاً له : (انْفرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيلِ اللهِ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون). وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حالٌ لا يكابد في الله نَصباً ولا أذًى ، ولا يُنْفق نفقة ولا يقارع عدواً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضاً ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجرٌ مأمول ،

قال الله عزَّ وجَلَّ : ( ذلك بأنهم لايُصيبُهم ظَمأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصةٌ في سبيلِ الله ولايَطئون مَوْطئاً يغيظ الكفار ، ولاينالون من عدوٍ نَيْلاً إلا كُتب لهم به عَمَلٌ صالحٌ إنَ اللهَ لايضيعُ أجرَ المحسنين ولايُنْفقون نفقة صغيرة ولاكبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون ).. وليس من شئ يتقرَّب به المؤمنون إلى الله عزَّ وجَلَّ من أعمالهم ، ويَسعُون به في حَطّ أوزارهم وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهادُ عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ،

وسمحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم ووَقَمُوا (قمعوا) بجهادهم العدو ".

والناظر المتأمل -فيما سبق - يلمس بوضوح سعي الكاتب الدؤوب نحو ترسيخ مذهبه الأدبي الذي يعتمد على الدقة والوضوح في التعبير ، والميل إلى التآلف وحسن التجاور وروعة التقابل بين الجمل حتى يأنس المتلقي لسماعها ، ويفتن بآيات الروعة والسحر والجمال فيها. ولعل هذا يؤكد لنا أن ابن الخصيب كان كاتباً بارعاً ماهراً بأدوات صنعته إذ يقودها في أرجاء البيان بروعة وإحكام – أنه لا يتكلف القولَ ، ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة وهذا أصفى وأشهى البيان.

وعلى كل فإن المدقق في رسائل نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين يرى أن السجع صار لغة جميع الرسائل ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى.فالرسائل – على هذا النحو كانت تمتلئ بالزخارف المتكلفة حتى صارت المثلَ الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية ، إذ كان لزاماً عليهم أن يوجدوا قوافيها وفواصلها ، ولا بد من تساوق أنغامها وألحانها في الكلام وإلا خرجت عن المألوف.

**٢- الرسائل الإخوانية والأدبية:**

لما قدمنا حديثاً مفصلاً للكتابة العصر العباسي الأول عرفنا أن الرسائل الإخوانية ازدهرت ، إذ اتخذها الأدباء – وقتذاك – وسيلة لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية .

على هذا النحو فلقد زاحم النثر الشعر بمنكب ضخم في شتى مجالاته الخاصة وفضاءاته كالوجدان والعاطفة حيث أبدى الكتّاب – في ذلك اللون – مقدرة وبراعة كبيرتين ، فرأينا كثيراً منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي ، عوداً فلقد زاحمهم الشعراء أنفسهم لما أدلوا بدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من توجَّه إليهم . وبذلك توفَّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتّاب والشعرا النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا في النثر جماليات من التفكير ودقة التعبير وروعة من

التصوير ما كانت له من قبل ... فالنثر أصبح عالي المقام عن الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يقلدون الوظائف العليا فى الدولة ودواوينها فحسب ، ولالأنه كان يُختار منهم الوزراء وسفراء الأمراء والكلمة فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر فى التأثير على وجدان القارئ ، بما وفَّر له كتَّابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها وعذوبتها ومن حسن تأليفها وتلاؤمها فى الجَرْس . فالكاتب مايزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حَرْف وحرف ، حتى يَأسرَ العقول والألباب . وكان أكثر من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسْرِ تعابيره ومايجرى فيها من مرونة، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه فى بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، وتَحْمِلُ كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتَّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصورّ مدى ماكانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهال ، يقول (١٠).

أسعدك الله يا أمير المؤمنين - بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك فى إقبال الزمان ، وبَسَطَ بيُمْن خلافتك الآمال ، وخصَّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشَدَّ بك أزْر التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُغْدق (كثير المياه) وبمواقع تمكين لايجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهايةُ ضارب المثل وعمر ببلائك الإسلام ، وفسح لك في القدرة والمدة وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسَرْبلك (ألبسك) العافية ، ورداك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامِيَة ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً".

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة فى التهانى والتعزى والاعتذار والشوق والفراق وفى السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي فى ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقلُ السجع فى رسائله الإخوانية ، ولكنه يعنّى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى فى الرسالة التالية ، وهى فى تهنئة صديقة عبيدالله بن وهب وزير المعتمد فى يوم عيد.

" أخرتني العلة عن الوزير - أعزّه الله - فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوبَ عني ، ويَعْمُرَ ما أخلته العوائق مني ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيدَ أعظمَ الأعيادِ السالفةِ بركةً على الوزير ، ودون الأعيادِ المستقبلةِ فيما يُحبُ ويُحَبُّ له ، ويقبل ما توسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولايُريه في مسرةٌ نَقْصاً ، ولايقطع عنه مَزِيْداً ، ويجعلني من كل سوءٍ فداءه ، ويصرف عيون الغِيَرَ (حوادث الدهر) عنه وعن حَظّي منه "(١١).

والرسالة - كما نلاحظ - ابتهالات أو أدعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها كل العناية بجزالة العبارة ومكانتها ونصاعتها وشدة إحكامها وقوة أسرها ، ولم يلجأ كعادة الكتاب إلى السجع تشهد له بذلك صدقُ موهبته وروعةُ ملكته .هذا ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله

## ثانياً : المقامة :

لعلنا لا نبعد عن الحقيقة لما نقول : إن المقامة تعدُّ من أهم الفنون في أدبنا العربي لاسيما من حيثُ الغاية أو الهدف التي ارتبطت به ، ولربما قد جاءت من أجله - ألا وهي الغاية التعليمية المتمثلة في تلقين الناشئة فنّ ترسيخ وتقعيدِ صيغ وجماليات التعبير تلك التي تتشحُ بألوان البديع " وتتزينُ بزخارف السجع ، وتزهى بخطوط المحسنات وهذا دليلٌ على العنايةِ بنسبها ، ومعدلاتها اللفظية في أبعادها الجمالية ، ومقابلاتها الصوتية ، ومضامينها الاجتماعية (١٢).

والحديثُ عن أصول المقامات لابدَّ أن يأتي في إطار تبني مفهومٍ معينٍ لفن المقامة حيثُ يرسم أبعادَها اللغوية ، ويحددُ خصائصها الاصطلاحيةَ العامة ، ويركز على رسم مسارات التطور الدلالي لها ، ثم الحديث عن هيكلها العام .

والطريقُ إلى ذلك يتطلب تتبع النصوص التي سبقت وصاحبت نشأة فن المقامة على يد الهمذاني ، رائد فن المقامة .

هذا وستهتم الدراسة بتسجيل بطاقة معرفية ، أو رسم خارطة توضيحية لهذا الفن لكونه استطاع أن يدخل بنا مجتمعاتٍ ناميةً ،وجعلنا نعايشهم معايشةً حقيقيةً ؛ لنعرف أهازيجهم وهرجهم ومرحهم ، ونكشف عن عوالمهم النفسية وأحوالهم المعيشية.

**المقامة لغة:**

بالنظر إلى مادة (المقام والمقامة) (١٢) في معاجمنا اللغوية فإنها – بعد حذف "أل" التعريف – اسمُ مكانٍ حيثُ إنها ظهرت في الاستعمال العربي القديم دالةً على موضع القيام، فهي (مَفْعَلة من القيام)، يقالُ (مقام، ومقامة) كمكان ومكانة، ثم توسع العرب في استعمالها فدلت على (المكان والمجلس)، ومقامات الناس: مجالسهم، ويظهر هذا الاستعمال جليًّا عند شعراء الجاهلية نذكر منهم قول بشامة بن الغدير: –

وشربتُ بالقَعب الصغير وقادَني   نَحْوَ المقامةِ من بنِيَّ الأصغرُ

وقول لبيد بن ربيعة: –

ومقامة غُلْبِ الرِّقـــاب كأنهمْ   جنٌّ لدى باب الحصير قيامُ

دافعتُ خُطَّـــتَها وكنتُ وَلِيَّها   إذ عنَّ فَضْلَ جوابها الحكامُ

وجاءت جميعاً في قول زهير: –

وفيهمْ مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهَا   وأنديةٌ ينتابُها القَوْلُ والفعلُ

حيث تجيء بمعنى مجلس القبيلة، أوناديها على نحو ما رأينا عند (زهير)، وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس على نحو ما أشارت إليه الكلمة عند (لبيد).. فإن كان هذا كذلك فإن الأصل اللغوي لكلمة (مقامة) كان دار الندوة، أو الندوة؛ وهو المكان الذى يجتمع فيه أبناء القبيلة للسمر أو التشاور والتحاور؛ لإبداء الرأى فيما يعرض عليهم من قضايا أو مشكلات تعترض حياة القبيلة، ثم أصبحت الكلمة تدلُّ على الاجتماع نفسه، أي مجلس القبيلة وناديها.

لقد ظل هذا المفهوم اللغوي سائداً منذ العصر الجاهلي حتى جاء الفتح الإسلامي فرأينا القلقشندي – في المقالة العاشرة من كتابه "صبح الأعشى" – يتحدث عن المقامات قائلاً: وهي جمع مَقامة بفتح الميم – في أصل اللغة – اسمٌ للمجلس والجماعة من الناس، وسميت الأحدوثةُ من الكلام مقامة؛ لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها "(١٣).

فمن خلال عرضنا السابق يكون معناها حديثاً مرسلاً يقوم به شخصٌ واحد يستمع

فيه إليه الراشدون ، إذ يدور -كلُ هذا - في دار الندوة ، هذا الحديثُ يتناول أخباراً تحدثُ أو حكايةً عن شخصية ، أو نادرةً من النوادر تُروى بلغة عربية فصيحة سليمة بناءً ، وتركيباً ، بحيثُ تستقطبُ أذهانَ السامعين فتذهلهم ، وتدهشهم بجمالها الأخاذ

**المقامة في الاصطلاح:-**

نظراً لأن هذا الفنَّ جديدٌ - في بابه - ؛ لذا فإنه لم يُقصَدْ اصطلاحاً - إلا مع بديع الزمان أول من أنشأ هذه المقامة ، وأعطاها معنًى اصطلاحياً غلب عليها حيثُ استعملها في حديث الكُدْية الذي يلقي في جماعة في شكل قصصيٍ قصير يخلو من العقدة والحل لكنه يهتم بالحركة التمثيلية معتمداً على المحاورة بين شخصين أحدهما عيسى بن هشام الراوي ، والآخر : أبو الفتح الإسكندري البطل الذي يظهر في شكل أديب شحاذ..

على كلٍّ فإنه يمكننا القول إن المقامة جنسٌ نثريٌ جديد له ذاتيته ، وله أصوله وقواعده الفنية ، ازدهر في عصر من العصور الفنية والقديمة ، مستقلٌ يشتملُ على حديث قصير ، حيثُ يُلقى في مجلسٍ واحدٍ فيصاغ في قالب فني قصصي مشوق ، تتألقُ فيها الألفاظ والأساليب ، هذا الجنسُ له سماتهُ الخاصة التي تميزه عن غيره من الأجناس النثرية الأخرى وغالباً ما تترجم عن صاحبها ، وعن ظروف العصر الفنية والروحية والاجتماعية والحضارية فتصف مشاهدَ الحياة اليومية ، ومشكلاتها بأسلوب يحملُ كثيراً من ملامح الحديث ، والحكاية والعمل الدرامي ويسعى إلى التسلية والتعليم في آنٍ معاً - يتخللها ظروف وسخرية ودعابة ومجونٌ وذلك بلغة خاصة وهي في ذلك تكون متأثرة بالحياة الشعبية فتصير فناً مأثوراً وأسلوب حياة مثل غيرها من النصوص السابقة أو المعاصرة-هذا النص ينبغى فهمه ودراسته والحكم عليه .

**تطور دلالة المقامة في المفهوم العربي:**

المتبع لتاريخ اللفظة وتطورها الدلالي يجدُ أنها كانت تستعمل منذ العصر الجاهلي - كما عرضنا سالفاً - بمعنى المجلس ، أو الجماعة التي يضمها ذاك المجلس، وفي الإسلام نجد الكلمة قد استعملت بمعنى المجلس الذي يقف فيه شخص بين يدى خليفة أو حاكم فيتحدث واعظاً حيث يدخل فى معناها الحديث القائم على الوعظ الذى يصاحبها ....

ثم تتقدم حثيثاً فنجدها بمعنى المحاضرة ، وفيها تتخذ شكلاً دينياً خالصاً فإذا هي أحاديثُ تدورُ حول الزهد والأدب ، وأخبار الوقائع القديمة وخصوصاً في أيام الأمويين ومع تطور حياة الأمة العربية - بعد الإسلام ، وتحديداً في العصر الأموي وانتقالها من حياة البداوة إلى حياة المدنية تنتقل اللفظة إلى الحديث المتضمن معنى الزهد على طائفة من المسلمين وخصوصاً عندما لاحظ بعض الزهاد ميل الحكام إلى الشطط في الحكم ، وظلمهم الرعية فاتصلوا بهم واقتربوا منهم سواءٌ أكانوا وزراءً ، أم عمالاً فراحوا يفطّنونهم ، ويبعدونهم عن غرور الدنيا ، ومتاعها الزائل ، وبالقصاص العادل الذي ينتظر كلاً من الحاكم والمحكوم بعض الموت ، وهم - في وعظهم - استخدموا لغة تقترب من لغة الحديث القديم ، وقد رصعوها بما اكتسبوا من درر القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف، ومن الشعر العربي ، ومن جوامع الكلم التي حفظها الزواة من أيام العرب ، ومما صدر عن حكامهم .

فمثل هذه النماذج حاصلةٌ ماثلةٌ في عيون الأخبار الذي يرى أن المقامة هي كلام منثور في الرسائل والمقامات والجوابات دون تحديد ماهيته أو تسميته .

لقد تردد أصحابُ المقامات والزهاد عند الخلفاء والملوك حيث احتلت مكاناً وسطياً من الزهد مشيراً إلى وقوف بعض الزهاد بين يدي الحكام والواعظين يحاضرون ويعظون

ثم تنتقل المقامةُ في آواخر القرن الثاني من حيثُ هي موقفٌ وعظي يتسمُ بأسلوب زاخر بالمحسنات اللفظية ، ويستوعبُ نسبة كبيرة من الغريب في جمل مسجوعة ، وذلك "إلى موقف وعظي خطابي يقفُ فيها الشخص واعظاً بين يدي الخليفة ووشيكاً ما تصبح محاضرةً - تأخذ بطرف من شتى فروع المعرفة - تلقى لتقدم وظيفة تعليمية بحتةً " (١٤) وقد راعت ضرورة تعلم النحو والصرف واللغة والشعر والأدب ليكونَ كلُ هذا بمثابة زاد يخاض به فيه مضمارُ هذا الفن .

على هذا النحو فإن الوعظ لم يعد هو هدفها وإن حافظت على الحديث الخطابي المباشر والاستشهاد بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأيام العرب ، والأقوال المأثورة حتى صارت طاقةً تجمعُ من أساليب اللغة العربية المتعة ؛ لتكون حديثاً مرسلاً لجماعة خاصة يفيد منها طلاب العلم ، ودارسوها كي يتفهموا صناعتها ، ويتفوقوا في كتاباتهم الفنية

ونذهب للقرن الثالث فنجد المقامة تأخذ معنى الكدية والاستجداء بلغة منمقة ممتازة لكنها لم تتخذ شكلها الحقيقي إلا على يد بديع الزمان ، والغالب أن أحاديث ابن دُرَيدٍ المتوفي سنة ٣٢١ هـ المذكورة في الأمالي هي الأصلُ في المقامات. من هنا فإن المعنى قد انتقل من المعني الوصفي المتمثل في المكان ، أو المجلس الذي يضمُّ الجماعة من الناس وذلك إلى المعنى المجازى الدالِ على حديث الشخص في المجلس سواءً أكان قاعداً أم جالساً ؛ لهذا استخدمها بديع الزمان في المقامة الوعظية إذ نرى أبا الفتح يخطبُ في الناس واعظاً بديعاً وراع ذلك منه عيسى بن هشام فقال لبعض السامعين .

(من هذا ؟ فقال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه فاصبر عليه إلى آخر مقامته (١٥) وهنا نلمسُ الارتباط الواضحَ بين المقامة والخطبة والمحاورة-من ناحية تعلم البلاغة وأدوات القصاصة-بوصفها وسيلةً تعليميةً ليس غير، أي مجموعة أساليب منمقة صياغة ؛ لتكون حديثاً مرسلاً لجماعة خاصة ثم لتشكل خطبة وعظية موجهة إلى خاصة الخاصة ، وهم الخلفاء ، والأمراء والوزراء ثم لتكون أداة تعليم ، وتثقيف ، وكأنها محاضرةُ تأخذ بطرف من شتى فروع المعرفة هذا ما نلاحظه في أحاديث ابن دريد الذي اتجه بها لتعليم الناشئة أساليب العربية ولغتهم التي أثرت فيها بَعْدُ في بديع الزمان ؛ فجاءت معظم دروسه حول أحاديث ابن دريد الأربعين حيث إنها ألهمته مقاماته في الكدية التي عارض فيها تلك الأحاديث لا الرسائل التي صنعها أستاذه ابن فارس التي لم تعلم عنها شيئاً حيث زعم جورجي زيان أن بديع قد احتذى بها ... هذا على جانب

على جانب آخر فإنها أثبتت أوجاءت لتدل على الحديث الأدبي المكتوب الذى يلقى في المجلس ، ثم انتقلت لتدل على الحديث الذي يلقى في المجلس وذلك على يد الهمذاني في العصر العباسي .

إذن فقد استوت المقاماتُ على يد بديع الزمان الهمذاني قصصاً قصيرة تحفلُ بالحركة التمثيلية ، وفيها تدورُ المحاورة بين شخصين يسمى أحدهما : عيسى بن هشام ، والآخر : أبا الفتح الإسكندري ، وقد نهج الحريري ، المتوفي سنة ٥١٦ هـ على منواله فجعل الحوار بين شخصين هما أبو زيد السروجي ، والحارث بن همام ،

ويظهر أبو الفتح الأسكندرى ، أو أبو زيد السروجي أديبا فكرياً شحاذاً - يحاولُ أن يستدرُ عطفَ الناس بمواقفه بينهم ، ومايجريُ على لسانه من فصاحةٍ فى أثناء مخاطبتهم .

## المقامة والقصة :

عندما عرف الأدباءُ العربُ القصة في الآداب العربية - خلط بعضٌ منهم بينها وبين المقامة فظنوا أن المقامة ماهي إلا ضربٌ من ضروب الفن القصصي ، وهذا زعم يجافي الحقيقة ، وقد يذهب بما صنعه البديع أدراج الرياح ، ولاسيما أنه لم يسعَ من وراء ماصنع سوى أن يضع للناشئة صنوفاً شائقة من أساليب اللغة العربية المنمقة كي يحتذوها ، وحتى يتيح لهم ويوفر لها مايجذبهم للإقبال على مايؤلفه ، واختار البطل شحاذاً ؛ ليتم له التشوق ، وهذا ما دفعه إلى استيحاء شخصيات شعبية كان لها وجودها منذ وقت مبكر في البيئة العربية ، خاصة الشخصية الرئيسية المتجسدة في شخصية أبي الفتح الإسكندري المحتال البليغ والتى يراها بعض الدارسين تجسيداً لأحد بخلاء الجاحظ وهو خالد بن يزيد القاص البليغ الذي نجد صداه يترددُ بل يشخص في وصية أبي الفتح الإسكندري لابنه عند بديع الزمان فيما بعد ووصف الإسكندري لمغامراته في المقامة السجستانية قريب من وصف خالوية لما كابده (١٦) حيث إن الجاحظ قد عرض صوراً شتى للمكدين ، ويقال إنه ألف كتاباً اسمه "حيل المكدين" ، وفي هذا دليل يؤكد تمهيده بشكل أو بآخر لظهور المقامة .

على كل فإنه قد يجتمعُ الاتفاق في الشكل الظاهري ، أما في المضامين والأهداف وصيغة الأسلوب فالاختلاف قائمٌ بينهما حيث نجد أن الحادثة التي تحدث للبطل لاتقدم شيئاً أي ليست الغاية فنية بل إن التعلم والأسلوب الذي تُعرَضُ به الحادثة هو غايتها فالمعنى ليس الشئ المقدم المحتفى به ، لكنه الأداة التي تبرز من خلالها الغاية التعليمية .

ولأن المقامة شكل فني - تطور إلى أبعد غايات التطور في حدود إمكاناتٍ متاحة لها بينما القصة فنٌ حديث النشأة أفرزته عوامل مختلفة في ظروف محددة ؛ لذا فإن المقامة -كما يقول (١٧) الدكتور السيد النساج - " قد قامت بدورها في تقريب

الأشكال الأدبية الحديثة إلى أذواق القراء ".

على كل فإن المقامة ليست قصةً - إذن - وإنما هي حديثٌ أدبيٌ بليغ ، أقرب إلى الحيلة منها إلى القصة .

**هذا ولظهور المقامة أسبابٌ كثيرةٌ نذكرُ منها :-**

أ - التأثر بالأدب الفارسي لاسيما شعر الساسانيين أي شعر الكدية الذي جاء على يد شاعريه الكبيرين الأحنف العكبري وأبي دلف الخزرجي الينبوعي حيث ضمن بعض مقاماته شيئاً منها أو التأثر بالحياة الاجتماعية الفارسية تأثراً لافتاً

ب- اضطرار بعض الأدباء الفقراء لكسب رزقهم بالحيلة والاستجداء بسحر بيانهم وبلاغة إنشائهم ؛ لأنهم لم يظفروا بعناية الخلفاء والأمراء .. **شكلاً**: متمثلاً في عدم الحفاوة بهم وإهمال فنهم ، **ومضموناً**: في عدم الإغداق عليهم بالهبات والعطايا مثلما يحظى غيرهم .

جـ - حرص الأدباء على إظهار مقدرتهم الأدبية واللغوية فوجدوا أن هذا اللون هو معرض لإظهار القدرات .

**وأما عن الأهداف فنستطيع أن نحصرها في ثلاثة أشياء :**

١- إظهار المقدرة الفنية ، فقد كان بديع الزمان واثقاً بنفسه ، فخوراً بقدراته، غزير الثقافة، فعمد إلى الكشف عن قوة حافظته ، وسعة إطلاعه ،وغزارة علمه ، وكثرة رحلاته ، وروعة ابتكاره .

٢- تصوير مظاهر مجتمعه عامة في صورة أدبية طريفة تدخلُ البهجة على النفوس ،وتكشف عن أخطاء هذا المجتمع رغبةً في إصلاح مافسد ، ثم تصوير معاناته من التشرد وقسوة الغربة وسوء الحال

٣- تعليم النشئ ، إذ كان بديع الزمان عربياً غيوراً على العروبة ، حريصاً على أن تظل اللغة قوية سليمةً ، كما كان حريصاً على إحياء أجمل ألفاظها ، فحرص على أن يحشدَ في المقامات قيماً معجمية ؛ ليعلم الناس اللغة القصيرة .

٤- الدعابة والإمتاع والمؤانسة وإفشاء روح المرح والضحك.

**مقامات بديع الزمان:**

**أولاً: موضوعها:**

تعددت موضوعات المقامة عند بديع الزمان التى استوحاها في عمله مما كتبه الجاحظ ، وقصته عن أهل الكُدْيَة - كما أفاد مما كتبه ابنُ دريد من أحاديثه المعروفة في كتاب الأمالي والتي جعلته يأخذُ اتجاهاً تعليمياً - فربت عن خمسين مقامة دار الحديثُ في أغلبها عن الكدية والاستجداء إذ يظهرُ لنا أبو الفتح في شكل أديب شحاذ يثير انتباه الجماهير ، وينتزع إعجابهم إذ يلفت نظرهم إليه ببلاغته القاهرة في لغته العذبة ، وعباراته المنمقة؛ ليستولي على أموالهم . فأحياناً يسميها باسم الحيوان الذى يصفه (كالأسدية)، وباسم (الأكلة التي يعرفها كالمضرية) أي نسبته إلى أكلته المضرية ، وأحيانا يسميها باسم الموضوع الذي يعرض عليه كالموعظه ؛ لأنها تدور حول الوعظ والزهد معاً ، وقد يسميها القرضية ؛ لأنها تدور حول القريض والشعر ، والابليسية ؛ لأنها تتصل بإبليس ، والمملوكية ، لأنها تتصل بملك هو خلف بن أحمد وهناك المقامةُ العلمية تلك التي تصفُ طالب العلم ، وطريقه الصعب ، ومايجبُ أن يداوم عليه من الحفظ والدرس والفهم والتحقيق وغيره ..

ثم ننظر إلى المقامة الإبليسية التي تدور حول لقاء عيسى بن هشام لإبليس في وادٍ من وديان الجن حيث ضلّت الإبل طريقها فخرج في طلبها فوجد وادياً معشباً به شيخٌ جالسٌ ، وقد أمره بالجلوس ، وسأله : هل تروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم . وأنشده لامرئ القيس ولبيد وطرفة ، فلم يطرب لشئ مما سبق ، وعرض عليه أن ينشده من شعره فأنشده قصيدةً لجرير، فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير . وبعد حوارٍ قصيرٍ بينهما قال له إبليس : " ما أحد من الشعراء إلا ومعهُ مُعين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبومرة" وغاب بعد هذا الكلام فوجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً .

هذا ويرى الدكتور شوقي ضيف أن المقامة هي التي أوحت لابن شهيد أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة وهي الرحلة المعروفة باسم" التوابع والزوابع"(١٨)وهذا يشير إلى وجود صلة لشياطين الشعراء وراء عالمنا في وادي عبقر.

على كل فإن بديع لم يصطلح في تسمية مقاماته على طريقة واحدة وهذا يؤكد أن موضوعاتها لا تقف عن الكدية والاستجداء ؛ لكنها تتخذ موضوعات كثيرةً تحركها بوصلة المكان أنّى تشاءُ .

**عناصر بنائها الفني:**

لقد أجمع مؤرخو الأدب أن الهمذاني هو الرائد الحقيقي ، والواضع لقواعد المقامة الفنية وصياغة نماذجها الرائعة حيث تقوم على أقصوصة ذات عناصر أساسية هي :

١- **الشخصيات** حيث اختار لمقاماته راوياً شريطة أن يكون مقبولاً ومتفاعلاً مع بطله وبطلاً جاء شخصيته لا وجودَ لها ، فهو فيها تارة وسيمٌ، وتارة شابٌ، وتارة قصيرُ ، ويظهر أنه ذكيٌ واسع الحيلة ، أديب مثقفٌ ، ملمٌ بكثير من العلوم يسعى للحصول على المال ، سلاحه - في ذلك - فصاحةُ لسانه ، وحلاوة منطقه وجودة تمثيله لما يخترعه وهذه نفسها صفاتُ أبي الفتح التي تبعث من البيئة ، وصورة نماذج من طبقات المجتمع والجمهور الذي يتفاعل مع البطل ، ويكون له دورٌ كبيرٌ في تسيير الأحداث ؛ لكنه ينخدع بحيل البطل

٢- **القصة** وهي حكايةُ خياليةُ تكون قليلة الحوادث ، محدودة الحوار يخترعها البطل عن نفسه ، ويجعل منها حيلةً تثير انتباه الجمهور، وتنزع إعجابه فيدفع ما أراد البطل منه.

**خصائصها من حيث اللغة:** لقد جاءت معبرة عن الشخصيات ، متنوعة على حسب المواقف الدرامية والنفسية والمادية . فاللغة المستخدمة جاءت مسموعة تؤدي معناها الأساسي بطريقة فنية حيث لاتقف عند أداء المعنى بل تتعداه إلى أن تجمع ملامحها ، وترسم أبعاد شخصياتها وبخاصة حركتها ورشاقتها ، أما عن العقدة والحل فإن كثيراً من مقامات بديع تشتمل على عقدة واحدة ، أوعقد متعددة بينما جاء البعض الآخر منها مجرد سرد ، لا تحتوي على عقدة ، ويمكن أن نلحظ هذا في المقامة الوعظية ، والمقامة الوصفية ، وبعض المقدمات - كما يرى الدكتورأحمد أمين - فيها وعقدة مازحةٌ ؛ لكنها تصور مأزقاً نتج من الأحداث يتطلعُ القارئ إلى معرفة نهايته ، ومن هذه العقد الساذجة ماجاء فى المقامة البغدادية حيث يستدرجُ عيسى بن هشام سوادياً ساذجاً

ويأكلان ما لذَّ وطاب من لحم وحلوى وليس معه نقود ، وهنا تتعقد الأمور وتتأزم حتى تشكل عقدة ، ونشتاق إلى معرفة النهاية وكيف تخلص عيسى بن هشام من هذا المأزق؟ وماذا فعل السواديُّ ؟ ويأتي الحلُّ حين يستأذن عيسى بن هشام لإحضار ماء مثلج ، وينصرف إلى غير رجعه ، ويستمهل السواديُّ صاحبَ المطعم ؛ لكن الانتظار يطول ، ويضطرُّ السواديُّ إلى حل الكيس وهو يقول : كم قلت لذلك القريد : أنا أبو عبيد ، وهو يقول يا أبا زيد (١٩)

**من خصائصها:**

كون أن بديع الزمان كان يسعى للإتيان بجاميع الأساليب على مائدة عمله تلك التي تجذبُ السامعين ؛ لذا فلقد التزم بالسجع الرشيد الذي جاء عفو الخاطر، البعيد كل البعد عن التكلف فكأنه يمتح من نهر عذب لاينفد ، ولعل في هذا ما يدل على تمكنه وتملكه لمخزون عامر من اللغة ..

هذا السجعُ قد صبَّه في قواريرَ فكاهيةٍ تتميز بالشفافية وصدق الحس الشعوري وقد صدرت عن نفس البديع التي تشيع فيها روح الضحك والدعابة .. ولِمَ لا وأن الهدف من هذا الفن هو التسلية والمتعة والتعلم

ثم بالنظر لهذا السجع فلقد أحكم بديع الزمان قوالبه كما ضبط أنغامه ، فجاء قصيراً وقد قلص مساحات الوصف ؛ ليسهم في إعطاء مسافة زمنية صوتية سريعة تثير ذهن السامع ، وتجذب انتباهه ، وتشنف أذنيه .

**ومن حيث الألفاظ:** فلقد تنوعت بين الدقة والغرابة حيث أكثر من اللفظ الغريب الذي يحشو به أساليبه كقوله في المقامة القردية – على لسان عيسى بن هشام "بينما أنا بمدينة السلام قافلاً من البلد الحرام أميسُ مَيْسَ الرَّجْلة ، على شاطئ الدجلة "(٢٠).

فقد استخدم كلمة أميس بمعنى أتبختر ، وليس هذا ماتريد أن نقف عنده ،وإنما نقف عند كلمة الرَّجْلة فهي جمعْ رَجُلْ ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورةُ لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . ومثل هذا قوله في المقامة الموصلية " فأخذه الجُفُّ ، وملكته الأكُفُّ " والجف هنا العدد الكثير من الناس أي فأخذه بالضرب ومن ذلك قوله في المقامة المارستانية " والإكراهُ مَرة بالمِرةُ ، ومَرَّة بالدرة ، والمِرَّة هنا

العقل أما عن الحوار فإنه يميل إلى الإيجاز ولايدور حول قضايا ومضامين متصادقة ، ولايجنح إلى تحليل النفس الإنسانية إلا في القدر القليل ، ودائماً مايسعى إلى إبراز مقدرة أبي الفتح الذي يعبر عن آرائه .

عوداً قد اهتم بديع الزمان بالصور البيانية ، واستخدم الأشعار في نثره سواءً أكان من إنشائه ، أو من إنشاء غيره كما كان يقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ويضمنه الحكم ، والأمثال ، مما اقتبسه من القرآن في قول رجل إلى ابنه " ألم نربك فتياً وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ". ومن الحكم والأمثال " لافض فوك ، وماوراءك ياعصام .

## مقامات الحريري

لقد أتم أبو محمد القاسم بن على الحريرى المولود سنة ٤٤٦ للهجرة - بضاحية من ضواحى البصرة - تسمى المشتاق - وذلك بعد الهمذانى بنحو قرن - مقاماته التي بلغت ما يربو عن خمسين مقامة محاكياً إياها حيثُ راعى فيها نفس الأصول ، والقواعد الفنية التي أرساها بل ورفع قواعدها الهمذاني .

فالبطل عند الحريري هو أبو زيد السروجي ، والراوية هو الحارث بن همام ، ومحورها هو الكُدية والشحاذة.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا : إن أثرها قد تعدى الأدب العربى إلى الآداب الغربية حيثُ ترجمت في القرن الثامن عشر إلى اللاتينية ثم الألمانية ثم الإنجليزية ، وترجمها إلى العبرية اليهودي يهودا بن شلومو الجريري ، واحتذاها الأدباء الفرسُ مثل القاضى حميد الدين بن عمر البلخي .

إن من يقرأ مقامات الحريري ويتعقبه فيها يعرف أنها ألفت عملاً واحداً ، فإذا فحصناها وجدناه يرتبها ويرقمها ، وهذا معناه أنه يسعى إلى تقديم عمل بنائي محكم الصنعة ينطلق من نقطة بدء حتى يصل إلى النهاية .

فكلُ مقامة من الخمسين تأخذُ رقمها الخاص إذ نراه في المقامة الأولى - وهي الصنعانية - يقومُ فيها بتعريف بطله ، ثم ينتقل به أديباً مستجدياً في المقامات التالية ؛ لايلم ببلدة حتى يتركها إلى أخرى ، وكلها من بلاد العالم الإسلامي ، وهي

بلاد متباعدة ، وفي كل بلدة يقوم البطلُ بحيلة على من حوله من الناس أو الحكام أو القضاة ،وفي كل مرة يعرفه الحارث بعينه ويكشف أمره وسره .. وهكذا إلى أن تنتهي المقاماتُ وقد أهّل الحريري – لنهايتها – خيرَ تأهيلٍ ، كما افتتحها خير افتتاح ، فهو في أول مقاماته يعرفُ البطل بروايته ، وفي خاتمتها يفرقُ بينهما.

أما عن منزلتها فلقد فتن بها الناس حتى كادت تنسيهم مقامات الهمذاني حيث صارت – على مر العصور – منهجاً يُدرَّس حتى يفلح الناشئة والشيوخ في الأدب .

هذا ولقد توافر – على تقليدها – علماءُ كبارٌ من القدماء أمثال الشاب الظريف والبطوطي ، والشيخ حسن العطار ، وأحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجي .

**خصائصها الفنية:**

اتفق الحريري مع الهمذاني في عناصر مقاماته حيث جاءت كالتالي :

١- **الراوي** اسمه الحارث بن همام .

٢- **البطل** اسمه أبو زيد السروجي.

٣- **الموضوع أو الحكاية :**

تدور أغلب موضوعاتها على الكدية والاستجداء ، حيث ظهرت أكثر دقةً من بديع الذي أشرك معها موضوعات أخرى وقد صُبَّت جمعيها في قالب الشحاذة.. هذا بالإضافة للوعظ ، أو الدعاء ، وهي النزعة الغالبة في عشر مقالات . وقد تميزت بخفة الأسلوب ، ورشاقة العبارات ، ثم يتجه بعد ذلك إلى المقامة المغربية حيثُ وقفَ يعرضُ فيها لعبةً جديدةً ، لم تمسسها يدُ كاتبٍ من قبلُ ، وهي (لعبةُ مالايستحيل بالانعكاس فطرداً وعكساً يمكن قراءتها دون أن تتغير حروفها ، نذكرُ على سبيل المثال " ساكب كاسب ". فإنه يمكن أن تقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، وعرض علينا أمثلة نثرية منها مثل :

لُمْ أخاً مَلّ ، كبِّرْ رجاء أجْر ربك . ثم لم يلبث أن نشرها في أبيات من الشعر )

ولما نطق أبو زيد بهذا الشعر فإنه سحر السامعين بآياته . وقد لانعجب نحن الآن بهذه الشعوذة ، ولكنها كانت تعد غاية بعيدة المدى لديهم في الإبداع الفني ، وكان الحريري يعرض عليهم منها مايدل على تفوقه وإجادته بوصفه واحداً إذ أنه يعد من

أمهر اللاعبين وأكثرهم تجربة وحنكة بتلك الألعاب والتمارين اللغوية الغريبة.

"وعلى هذه الشاكلة مضى الحريري يحفل في مقاماته باللغة وحتى هو إن تركها إلى الفقه أو غيره لم ينسها ولم يهملها " (٢١).

٤- الأسلوب :

الناظر المتأمل في أسلوب مقامات الحريري يلمس - بوضوح -اعتماده على البديع من حيثُ الحوار المحدود بين الراوي فاقترب حثيثاً من أسلوب القصة ، لقد أخذ يحاول أن يلائم بين عصره وبين مقاماته فرأى الأدباء الذين سبقوه ، وعلى رأسهم أبو العلاء - قد تعمقوا في عقد مختلفة حيثُ قصر عقده ، وألعابه على مقاماته ، وخضع في سجعه لألوان البديع وللجناس خاصة ، فمضى يوشحه بالآيات ، وأجمل الكنايات ورصعه بالأمثال العربية والفتاوى اللغوية ، والأحاجي والرسائل المبتكرة والخطب الرائعة بروح فكهة تشع في جوانب مختلفة ؛ لتنير أرجاء مقاماته بحيثُ لايهدفُ منها تقويم النفس ، وتهذيبُها فحسب ، بل يهدف إلى الهزل والترفيه حيث إنها خالية من الفكرة .

إنه من خلال هذا المنحى الذي اختاره فإن الكتابة قد صارت - عنده - مركباً سهلاً وذلولاً خاضعاً لأغراضه الفنية والموضوعية.

أوجه التشابه والاختلاف (٢٢) بين مقامات بديع والحريري :

هناك شبه كبير في الشكل والمضمون بين مقامات بديع والحريري فمن حيثُ الشكل نرى أنه :

١- هناك سبعُ مقامات للحريري تحمل أسماء مقامات للبديع وهي : الكوفية والبغدادية والدينارية والساسانية والبصرية والشيرازية والشعرية .

٢-نسبت أغلبُ أسماء المقامات إلى بلاد ومحلات .

٣- عددُ المقامات خمسون عند كل منهما ، وقد تزيدُ قليلاً عند بديع الزمان .

٤- تعد الكدية هي الموضوع أو الخط الأساسي ؛ وإن تشظت منها موضوعاتٌ فرعيةٌ أخرى .

٥- في مقامات كل منهما بطلٌ وراويةٌ .

(آ) فبطل الهمذانى أبو الفتح الأسكندري ، وراويته عيسى بنُ هشام .

(ب) وبطل الحريرى : أبو زيد السروجي ؛ وراويتهُ هو الحارث بنُ همام .

٦- بالنظر للخطة الأساسية للمقامة عن كل منها فإننا نلحظ أن الراوية يبدأ بالحديث عن ضيفه تمهيداً للخلوص إلى الحدث الرئيسى وهو اللقاء المتنكر يكتدي ، أو يعظ الناس ، أو يتحدث فى مجلس أدب ، ثم يظهرُ في النهاية أنه البطل الذي يظهر بشخصيته الحقيقية بعد التخفي .

٧- لقد رأينا - أبا زيد السروجى يفصح عن نفسه ، ويبين عن شخصيته الحقيقية شعراً ، وهذه الإبانة تكون غالباً بذكر نسبته إلى بلدته " سروج " التى يظهر اعتزازه بها فى كل شعره ونجد مثل ذلك عند الهمذانى لأبى الفتح الأسكندري الذى أجاب السائل عن شخصيته بقوله :

| | |
|---|---|
| أسكندرية داري | لـو قر فيها قرار |
| لكـن بالشام ليلي | والعـراق نهـاري |

٨- الشعر يجرى على لسان كل الشخصيات المحورية والثانوية فى المناسبات المختلفة

٩- لم تخلُ بعضُ مقامات بديع الزمان من طوابع درامية ، وحبكة فنية ، وبراعة في الحوار . مثل المقامة الثانية والعشرين المضرية .

ومن حيث المضمونُ فإن بعض المقامات قد تتشابه أو تتلاقى من الناحية الموضوعية ، فى نقاط منها :

(أ) الألغاز والأحاجى نثراً وشعراً ، كما نرى في المقامة التاسعة والعشرين (العراقية) كذلك ؛ فإن هذا الأمر ماثلٌ في مقامات الحريري .

(ب) المقامة الثانية والأربعون :(الوصية ): يرويها عيسى بن هشام مباشرة عن أبي الفتح إلى ابنه . ومثلها عند الحريري المقامة التاسعة والأربعون الساسانية ، يرويها الحارث بن همام عن أبي زيد السروجي مباشرة .....

وكل من الوصيتين تمثل كلاماً متصلاً يرسم فيه البطل (الأب) طريقة في الحياة ، ووسائله لضمان العيش ، وكثير من هذه الرسائل قد وسمت بالانحطاط وتقلصت مساحة الفائدة المتمثلة في القيمة التعليمية إلى تدريب

عابر على الإنشاء ، حتى خلت من المحتوى الأخلاقي وذلك بسبب اعتمادها على شخصيات متدنية اجتماعياً من لصوص ومحتالين ومتسولين .

(جـ) المقامة الرابعة والأربعون الدينارية مباراة أو نموذج متدني لأقذع التشاتم بين الأسكندري وآخر من ساسان ، وكذلك نرى المقامة الأربعين "التبريزية" مباراة متشابهة فى السب والبذاء بين أبي زيد وزوجته أمام القاضي .

وإذا كانت المشابهةُ ماثلةً في كثير من الأمور فإن هذا لاينفي وجود فروق ، ووجوه من الاختلافات بين الهمذاني والحريري قد استطاعت رسم ملامح وأبعاد فن كل واحد على حدة.

على كلّ فإن أوجه الاختلاف قد تعددت وتنوعت حتى شملت أسماء المقامات وشخصياتهم والموضوعات التى تنولت والبناء الفني والأسلوب بإيجاز وسنحاول أن نكتفي بإبراز هذه الوجوه من حيثُ : -

**(أ) أسماء المقامات :**

فإن الناظر والمتأمل في مقامات الهمذاني يمكنه رصد ملاحظتين :

**الأولى :** نسبة بعض مقامات الهمذاني إلى أشخاص حيثُ إنها أعلام مشهورة في تاريخنا الأدبي، ولعل في هذا ما يؤكد صلته القوية بالتاريخ وخصوصاً الأدبي.

**هذه المقامات هي :**

١- المقامة السابعة : الغيلانية نسبة إلى غيلان وهو الشاعر ذو الرمة شاعر الحب والصحراء المعروف .

٢- المقامة الخامسة عشرة : الجاحظية ، نسبة إلى الجاحظ المشهور.

٣- المقامة الثامنة والعشرون : الأسودية : نسبة إلى الأسود بن قنان .

٤- المقامة الثلاثون : الحمدانية : نسبة إلى سيف الدولة الحمداني .

٥- المقامة التاسعة والثلاثون : الخلفية : نسبة إلى خلف بن أحمد.

٦- المقامة الثالثة والأربعون : الصيمرية : نسبة إلى محمد بن إسحق المعروف بابن العنبس الصيمري (٢٣) .

٧- المقامة التاسعة والأربعون : التميمية : نسبة إلى أبي الندى التميمي .

٨- المقامة الثانية والخمسون : البشرية : نسبة إلى بشر بن عوانة .

وهناك المقامة السادسة والثلاثون الإبليسية : نسبة إلى إبليس .

وهناك مقامات منسوبة إلى حيوانات مثل المقامة السادسة : الأسدية ، والمقامة العشرين : القردية.

كذلك فإن هناك مقامات منسوبة إلى ألوان من الطعام أو الشراب مثل المقامة الثانية الأذادية وهى من أجود أنواع التمر، والمقامة الثانية والعشرين : المضيرية وهو لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض وربما خلط المضير بالحليب وهو الأجود ، والمقامة الخامسة والثلاثين النهيدية وهي الزبدة الضخمة، والمقامة الخمسين الخمرية .

بينما نرى أن مقامات الحريرى لا تحمل واحدة منها أسماً من نوع هذه الأسماء : لأشخاص أو حيوان أو طعام أو شراب .

**الثاني**: إن الأسماء المنسوبة إلى بلاد لا تتعدى فارس والعراق والشام بينما نجد الحريري يوسع جغرافية المكان لتقدمَ خارطةً مشتملةً على مصرَ والمغربِ ومكةَ والمدينة .

**(ب) الشخصيات:**

١- يتفق عيسى بن هشام راوية الهمذاني ، والحارث بن همام رواية الحريري فى أن كلاً منهما واسعُ الثقافة ، أديبُ مطبوعُ الشاعرية ، وأن كلاً منهما رحالُ لايستقر به المقام في بلد إلا ويداعبه الشوق ، ويشده الحنين إلى بلد آخر .

فالناظر في الحارث يراه متوازن الشخصية في أقواله وأفعاله وأنه نقيُّ تقيُّ وأن كانت له بعض الانحرافات وكان قد أقلع عنها-أما عيسى بن هشام فقد كانت نفسه تنطوى على كثير من الصفات السيئة تلك التي اتصف بها أبو الفتح السكندري نذكر منها المكر والخداع وقد أنكرها.

لقد رأيناه يخدع سوادياً (عراقياً) من رساتيق العراق وقراه وذلك نسبة إلى السواد حيث سمي العراق سواداً لاكتساء أرضه بالخضرة من نبات وأشجار.. المهم أنه يستضيفه عند شواء ، ويأكل الضيف والمضيف - من اللحم الذي رش عليه ماء السُمّاق والحلوى - كلُ ما يشتهيان ، ثم ينصرف عيسى بن هشام هادئاً تاركاً

السواديُّ وقد أمطره الشواء بوابل من اللكمات .

فالرواية عيسى هنا يقوم بالدور الذي يؤديه أبو الفتح في المقامات خداعاً ومكراً في سبيل تحقيق أغراضه ، وإن كان له وجهان :

الأول : ما يظهره للناس من صلاح وتقوى .

الآخر : ما اتنطوى عليه حياته الخاصة من سكر وعربدة ...

وعلى كلٍ فهو يتواطأ مع أبي زيد في الكذب والخداع ، ويشترك معه في إيهام الناس بالقدرة على منع السيل عنهم ، وخشية أن ينكشف أمرهما تركا الناس سجوداً في الصلاة ، وتسللا هاربين ....!! والأدهى من ذلك أنه كان كثيراً ما يظهر للناس وجه التقى والصلاح ، أما حياته الخاصة .. حياة التهتك والشرب فمستورة عنهم ، أو على حد قوله

في المقامة الخمرية ".. **جعلتُ النهارَ للناسِ ، والليلَ للكأس** .. (٢٤)

ويظهر ابن هشام في المقامة الفزارية بمظهر متشرد أغلق . وفي المقامة الأسدية نجد عيسى بن هشام طريد السلطان بعد أن اتهم بمالٍ أصابه ...!!

فهذه الازدواجية الخلقية ، لانجد شيئاً منها في شخصية الحارث بن همام راوية أبي زيد الذي ظهر لنا شخصاً سوياً متوازناً ، واضح الملامح والسماتُ وبارز القسمات ، خالياً من المتناقضات .

**(جـ)الموضوعات:**

ذكرنا في أكثر من موضع أن الكدية كانت الموضوع الرئيسي في مقاماتي الهمذاني والحريري . هذا بالإضافة إلى موضوعات أخرى وقد التقيا فيها معاً ، لكن هناك موضوعات انفرادية أو استقلاليّة أي استقل بها كل واحد دون الآخر فتكون عند بديع مثلاً على حين أننا لم نجد ما يماثلها أو يشبهها في مقامات الحريري .

**من هذه الموضوعات نذكر :**

١- وضع بطاقة معرفية أو نموذج كامل للصوص مشتمل على حيلهم ، ووسائلهم في السلب والنهب والاستيلاء على أموال الاخرين .

٢- تقديم قائمة كبرى لكل ألوان الطعام ، وصنوف الحلوى ، وطرق إعدادها وتقديمها

ولعل هذا ماثلٌ في المقامة الغدادية .

٣- مدح الحكام والأمراء حيث نراه قد رصد مقامات كاملة لمدح خلف ابن أحمد أمير سجستان .

٤- النقد السلوكي الاجتماعي اللاذع الصريح ، وعرض قطاعات عريضة من الحياة كنقده المر للقضاء أو بعض القضاة في عصره ، فهو يصفه على لسان الأسكندري ".. **سوس لايقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لايسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لاينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لايغير إلا على الضعاف ، وذئب لايفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لاينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دنيته ، وخلع دينيته وسوى طيلسانه ، وحرف يده** ولسانه . وقصر سباله وأطال حباله ، وأبدى شقاقه ، وغطى مخارقه وبيض لحيته ، وسود صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمعه ".

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الحريرى قد قدم نقداً للقضاة والحكام ، لكنه جاء فى صورة غير صريحة فكان شبيهاً بالنقد الاجتماعى وخصوصاً نقده للأمراء والولاة ، فقد كان يتسم بالحذر وكم كنا نتمنى أن يتمتع بنصيب وافر من القوة والشراسة حتى نرى واقعه الاجتماعى مترجماً ترجمة أمينة وصادقة حتى نعيش هذا العصر بكل ملابساته .

**(د) البناء الفنى :**

المتأمل في مقامات الهمذاني يرى المقامة البشرية وقد اتسمت بخصائصَ وطوابعَ ملحمية رائعةٍ فهي تعرض لخروج بشر بن عوانة للحصول على ألف ناقة مهراً لابنة عمه ، وسار فى طريق محفوفه بالمخاطر ، وكيف استطاع أن يصرع الأسد والحية فى طريقة ، وبعدها أنشد مطولته الرائعة المشهورة التي مطلعها :

**أفاطمُ لو شهدتِ ببطنِ خبتٍ ... وقد لاقى الهزبرُ أخاك بشْرا**

بينما جاءت بعض المقامات القليلة وقد حملت لنا بعض الملامح القصصية مثل المقامة المضيرية ، والمقامة الصيمرية والحلوانية ، ولكن أغلب مقامات البديع ليس فيها ما نجده فى بعض مقامات الحريري من تعقيد فني ، وبناء درامي ، وحبكة قصصية.

وكثيراً من مقامات البديع لايعدو أن يكون " لقطة تصويرية" لمشهد عابر لايزيد على عشرة أسطر وقد استمت بالسرعة الفنية بيد أن بديع الزمان يتفوق على الحريرى في روح الفكاهة التي تسري في بعض مقاماته من أولها إلى آخرها وقد ترجمت ما في سريرته مثل المقامة والحلوانية وهى من أجمل المقامات بناء ومن أفكهها حواراً ، بحيث تصلح أن تكون مسرحية غنية ذات مستوى راق رفيع .

ولأن ماسبق قد صدر من عمل العقل الواعي لا الشعور العفوي ، لذلك لم تخلُ فكاهة الحريري من جفاف ، لأن العقل يحكمها بمنطق لغوي حاد ، ويفرض عليها قالباً نثرياً أو شعرياً يمنع توفر المتعة بالشكل الذي يطلب من المقامة.

**من أبرز أعلام نثر العصر وخصائصهم الفنية:**

**أولاً :ابن العميد :**

هو واحد ممن لحق بديوان البويهيين ، وكان أبوه قد خدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الريّ وقد تقلد ديوان الرسائل ، ولقّب بالشيخ كما لقّب بالعميد، وأخذ يترقى عنده حتى أصبح وزيراً مرموقاً مرهوب الجانب.

أما هو فلقد كني بأبي الفضل محمد بن الحسن المعروف بابن العميد ، وبالأستاذ والرئيس ينتمي إلى أصل فارسي من مدينة "قم" وهي مدينة شيعية حيث تشيع على مذاهب الإمامية، وأشتهر بالعلم والأدب ؛ لأنه نشأ في بيت علم وكتابة فكان عالماً في الفقه والتفسير والمنطق والفلسفة والطبيعة والهندسة ، وصار وزيراً لركن الدولة بن بويه ثم عضد الدولة بن بويه ساعد في تأسيس الدولة البويهية في فارس والعراق ، وعرف بحسن الرأي ، والتدبير ، يقدر الأدباء .ويعد آخر الأدباء المجيدين في العصر العباسي حتى – قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد وتوفي سنة ٣٩٠ هـ

حقاً : لقد كان ابن العميد مثقفاً ثقافةً واسعةً بجميع علوم عصره ، حيث استطاع أن يثقف نفسه بنفسه حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهين المشهور : إنه كان أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات . وحفظاً للداوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ،

فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة . ثم يستطرد قائلاً : ".. وأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم "(٢٦). ويقول ابن الأثير : "إنه كان عالماً في عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء المنشغلين به ، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها مالم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها مع سلامة اعتقاده إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ولين وعشرة مع أصحابه وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات ، وبه تخرج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء "، خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه ولكنه توفي في الطريق في صفر عام ٣٦٠ هـ وقد نيّف عمره على ستين سنة " (٢٧) .

من خلال عرضنا لما سبق فإنه يمكننا القول :إنه هو الذى أعطى الكتابة في عصر الدولة والإمارات صياغتها المنهجية والجمالية التي ظلت الأجيال المتتالية تستخدمها ، لذا فلقد لقّب بالجاحظ الأخير .

ثم بالنظر إلى هذه الصيغة فإنها قامت على دعامتين أساسيتين :

الأولى : السجع وقد كان من قبله موجوداً فى الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع خاماً ؛ لكنه طور فيه تطويراً جمالياً رائعاً ممثلاً فى أنه أدخل عليه ضروباً شائقةً من الموازنة فى السجعتين المتواليتين بحيثُ تصبحُ هذه الضروبُ لازمةً فى الدعامة

الثانية : تجئ تأسيسية وتتمثل في المزاوجة بين المحسنات البديعية مع الصور حيثُ أضافَ الاستعارةَ وغيرها من أفاويق البيان إلى جانب الجناس أو الطباق أو الإطناب إلى غير ذلك من سحنات البديع وذلك في قيمة تصنيعية استوت على يديها عنده الصورة التي كانت البلاغة تنتظرها .

ويبدو أنه - كما يرى الدكتور شوقي ضيف - أنه كان يحث بأن هذه الألوان تقوم في نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام (٢٨). ومع هذا فلقد كان أقل الكتاب التزاماً للسجع وأقربهم إلى انتحال المطبوع ، وكان كثيراً مايجعل فقرات رسائله أبياتاً

منشورة .. حتى انطبعت كتابته إلى التمثيل والحكمة.

تنظر إليه وهو يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة فيبدأ رسالته على هذا النحو (٢٩).

" كتابي إليك ، وأنا مُتأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدلُّ بسابق حُرْمة ، وتَمُتُّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حَقًّا ورعاية ، ويقتضي محافظة وعناية . ثم تشفعهما بحديث غلُول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبط أعمالك ، ويُمحق كلَّ مايُرْعى لك . لاجرم أني وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقَدّم رجلاً لصدك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلاحك واجتياحك لاستقبائك واصلاحك".

فالناظر إلى تلك الافتتاحية التى افتتح بها الكتابة يرى الصيغتين اللتين كانتا تكونان الدعامتين الكبيرتين فشكلتا قواعد المنهج الفني الذي التزم به وقد اصطنعه لنفسه بتمهل وروية وتدقيق وتجويد .

الدعامة الأولى : المتمثلة في السجع وتقصيره وإحداث الموازنات بين السجعات فحين تطول سجعته مثل (تدل بسابق حرمة) توازنها في دقة السجعة التالية لها (تمت بسالف حرمة) وكذلك السجعتان : " ثم تشنعهما (بحادث غلُول وخيانة) توازنها بـ ....(وتتبعها بآنف خلاف ومعصية) وكذلك " قد يعذب العقل ثم يؤوب" توازنها " ويعزب اللب ثم يقوب ، " يسكب الماء ثم يصحو " توازنها " ويكدر الماء ثم يصفو"

أما الدعامة الثانية : فإنها ماثلةٌ في الطباق مثل (طمع ، يأس ) ، ( إقبال وإعرض) ثم الإكثار من الجناس الناقص مثل (السابق ، والسالف ) ، ( رعاية ، عناية) ، ( يثوب ، يئوب ) ، (يصفو ، يصحو) ، (الحزم ، العزم) .

والكتاب يزخر - كما نرى - بالصور الكثيرة إذ يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم في كتاباته ، ونقرأ له وهو يعاتب صاحبه مثالاً على الدعامتين السابقتين " ألم تكن في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء مَدي وماء رَوِيٌّ ومهادٍ وَطِيٌّ (لين) وكِنٌ ، ومكان مكين ، وحِصْن حصين".

وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قــائــلاً (٣٠) :

" وقد يعدّ أهل التحصيل فى أسباب القراض العلوم وانقباض مدُدَها ، وانتقاض مرَرها (قُواها).. الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأدباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء .. وليس عندى الخَطْبُ فى جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته . ويحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحلّه الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهي نور نوافر بما لاقت حتى يصير إليه وشُرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه تتلفّت إليه تلفت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوُّف الصبّ العاشق .

والرسالة تمضى على هذا النحو حيث تعكس لنا دعامتين تأسس عليها منهجه :

**الأولى** السجع وتقصيره وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول ممثلةً ثروة زخرفية هائلة.

**الأخرى**: العناية بسجعاته البديعية وسلامة اللفظ وجودة السبك ووضوح المعنى علماً بأن الدعامتين موصولتان ، أو ممتدتان في رسائله الإخوانية مثل الرسالة التي وجهها لصديقه عبدالله الطبري يعبرُ فيها عن ثورة المشاعر ، وغضبة الصديق ، حيثُ اكتشف أخيراً أنه مخدوعٌ في صديقه وعليه أن يتحرر من هذه المصداقية حيثُ يقول (٣١):

وصَلَ كتابُك فصادقَني قريبَ العهدِ بانطلاقٍ من عَنَتِ الفِراقِ ووافقَني مستريحَ الأعضاءِ من جَوى الاشتياقِ .

فإنْ جَرى على حُكْمِه المألوف فى تحويل الأحْوال ، وجَرَى على رَسْمِه المعروف فى تَبْديلِ الأشكال وأعتقَني مِنْ مَخَالَتك عتقاً لا تستَحقُّ به وَلاءٍ ، وابْرَاني مِنْ عُهْدَتكَ بَراءةً لا تَسْتوجبُ دَرَكاً ولا استثناء ، ونزع مِنْ عُنقِى رِبقة الذُّل فى إخائك ، بيَدَىْ جفَائك ، وتَغلغل فى مَسَالكَ أنفاسي فعوض النزاعَ إليك نُزوعاً منك ،

ومن الذهاب فيك رجُوعاً دُونَكَ .

لقد بدأ رسالته إلى صديقه مخبراً إياه عن وصول خطابه إليه بعد انقطاع جعله يائساً من صداقته حيثُ كان هذا اليأس سبباً في راحة قلبه من مرارة الشوق وتلك طبيعة الدهر فى تغيير الأحوال ، فبعد أن كان مرتبطاً بميثاق الصداقية التى تحرر منها ؛ لأن صديقه لايستحقُ ولاءً حيثُ أعلن ابنُ العميد أن تخلصَ من مسئولية الصداقية.

نعود للدعامتين فنجد السجعات الطويلة في قوله :

(فصادفني قريب العهد بانطلاق من عنت الفراق . ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من هوى الاشتياق) ثم السجعه المزدوجة فى : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال وجرى على رسم المعروف فى تبديل الأشكال).

أما الدعامة الثانية فهى ماثلةُ فى الجناس الناقص مثل : ( جوى ، جوانح ) ، (النزاع ، النزوع ) ، والمقابلة في " النزاع إليك " نزوعاً منك ، ( الذهاب فيك ، رجوعاً دونك) والاستعارة المكنية في (فإن الدهر جرى حيث تخيل الدهر إنساناً يجري وقد حذف المشبه به وجاء بلازمة من لوازمه وهي الجري ، وسر جماله التشخيص، وكذلك الاستعارة المكنية في " انطلاق عنت الفراق" حيث تخيل الفراق قيداً شاقاً ينطلق منه فحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته وهي الشدة وسر جمالها التجسيم وكذلك التشبيه البليغ في " جوى الاشتياق ". وأصل التشبيه الاشتياق جوى بحيث توحي بشدة الشوق .

هذا ويمكننا - باختصار - أن نضعَ الخصائص الفنية لأسلوب ابن العميد ، وطريقته فـي النثر الأدبي وهـي :

١- الاهتمام باللفظ ، مع الاهتمام بالمعنى واستعمال الفقرات القصار ، ولعله بذلك متأثرٌ بالجاحظ .

٢- الالتزامُ بالسجع غير المتكلف والعناية بالمحسنات البديعية وهما الدعامتان اللتان مثلنا لهما سالفاً مع احتفاظه برونق العبارة وسلامة الألفاظ ونفاسة المعنى.

٣- الإطناب بذكر الجمل والألفاظ المترادفة لتحقيق الإيقاعات الموسيقية حيث إنه

يبسط الفكرة ويوضحها ، ويقسم الموضوع ، ويرتب أجزاءه مستعيناً في ذلك على المترادفات ، ويعاود المعنى بتنويع العبارات وسوق الأدلة التي تجذب القارئ وتنتزع إعجابه.

٤- الاستشهاد بالشعر والحكم وكذلك تضمين الأسلوب بالأمثال من أقوال الأقدمين كقوله ( ما ألقاه الهوى على بصري ، فهو من قول الشاعر :

**غطى هواك وما ألقى على بصري .....**

٥- كثرة الاقتباس من آيات القرآن الكريم مثل (فوليت منهم فراراً وملئت منهم رعباً) وكذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في أساليبه.

٦- كثرة الصور البيانية لاسيما الاستعارات التصريحية والكنايات اللطيفة.

## ثانياً: الصاحب بن عبّاد

ننتقل إلى تلميذ ابن العميد ذاك الذي كان يعملُ معه في ديوان ركن الدولة في الريّ حيث عني به منذ نعومة أظافره ، ووصله بأحمد الفارسي حتى جعل الناس يطلقون عليه صاحب ابن العميد ، ويبدو أنه قد أعجِب به .....

إنه هو كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد أبو القاسم ، من أهل الطالقان الواقعة بين قزوين وأبهر ، ولد عام ٣٢٦ هـ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني ، كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهية ، وكان شيعياً غير غال . حيث يعد الوزير الثاني الذي سطع اسمه في بلاط البويهيين وقد أخذ عن أبيه مذهبه الديني والسياسي ، قيل: إنه لقب بالصاحب ؛ لصحبته لابن العميد ، وقيل : سمي الصاحب ؛ لأنه صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا ، وسماه الصاحب فاستمر عليه اللقب ، واشتهر به (٣٢).

لقد كانت للصاحب منزلةٌ عظيمةٌ في دولته ، وقد أخذت هذه المنزلة تعظم على مر الزمان حيث كان يعضدها خلقٌ رفيع ، وكان مجلسه محطٌ رجال الأدباء والعلماء في عصره (٣٣) ولم لا وقد كان شاعراً مجيداً كما كان كاتباً عظيماً ....؟.. له رسائلُ منشورةٌ يبدو للناظر المدقق المتأمل فيها أنه كان مولعاً بالسجع حتى إن سجعته اضطرته إلى عزل قاضي مدينة "قم" لما قال يوماً : أيها القاضي بقم....

ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم ويبدو أن غرامة الفائق بالسجع هو الذي ألجأه إلي الوقوع فيما يحاذر منه ،

وتمضى رسائل الصاحب حاملة قيمة أدبية كبيرة ، فضلاً عن قيمتها التاريخية العظمى ؛ لأنها المجموعة الوحيدة التي وصلت إلينا عن كتّاب البويهيين فى القرن الرابع الهجري فعكست الواقع الحياتي والسياسي والاقتصادي لبني بويه....

وبالنظر إلى منهجها في الكتابة فإنه - دائماً- تبتدئ بالتحميد والتمجيد للنبي ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذي خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة فى فتح عظيم أطال فى الدعاء تنويها بالفتح ، ويروى معاصروه طرفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، الذي جعله يتجشم المنشاق التي ذكرها ابن العميد حين قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين : فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشئ إلا ليكتب لنا كتابى هذا من النوبهار يوم السبت فى نصف النهار .

إن من يرجع إلى رسائله المنشورة ويدقق النظر في سجعه يجده يترك نفسه على سجيتها فإن غشيه السجع مضى فيه وإن لم يوافه استخدم أسلوب الازدواج وهو في هذا وذاك بليغ عظيم .

ثم نعيد النظر في سجعه كرة أخرى فنرى أنه يمتاز بالبساطة والرشاقة حيث إنه في لفظه أكثر لمعاناً وترقيقاً من معاصريه من كتاب الدواوين ؛ لذا فإن القاعدة التى وطن عليها رسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفنناً يدل على مهارة واسعة حتى صار لديه إلفاً وعادة .

فالصاحب - ولاشك - أسرف في ولوعه بالسجع إسرافاً حتى إن هذا السجع المتتابع أنق به كلامه وحسّن نظامه وتخير ألفاظه وأجاد تأليفه . وأحسن تنسيقه وقوّى عباره ، وفى هذا وذاك دليل على القنية العليا في صنعته .

ثم ننظر إليه عندما يستخدم الجناس والسجع والازدواج فإنه - من وراء هذا كله -

يهدف إلى الإتيان بموسيقى تأنس لها النفس ، وتطرب لها الأذن ؛ غير أن الموسيقى المترادفة فى الأسلوب تضفى على عبارته من أسباب القوة في المعاني وأصالتها ما يمنحها سمة الاستقلالية أو التفردية.

نذكر على سبيل المثال رسالته التي كتب بها إلى أحد القضاه وقد وفد عليه في الريّ (٣٤) :

"تحدثت الركابُ بُسير (أروى) إلى بلد حططتُ به خيامي

فكدت أطيرُ من شوق إليها بقادمةٍ كقادمةِ الحمام

أفحقٌ ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظنٌ كأمانيّ الحالم ؟ لا والله ! بل هو درْكُ العيان ، وإنه ونيل المنى سيان ، فمرحباً أيّها القاضي براحلتك ورحلتك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، وياسرعة ما فاح نسيم مَسْراك ، ووجدنا ريح يوسف من رباك ، فحُثَّ المطي تُزل غُلّتي برؤياك ، وتزح علتى بلقياك ، ونص على يوم الوصول نجعله عيداً مشرفاً ، ونتخذه موسماً ومعرفاً ، وردّ الغلام ، أسرع من رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نَسر وأن يترك الصبا في عقال وأسْر :

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدنتك تحوي يازيادُ بن عامر

أصائلُ قربٍ أرتجي أن أنالها بلُقياك قد زحزحن حرَّ الهواجر

فالناظر المتأمل فيما سبق يرى أن الصاحب ينحو منحى أستاذه ابن العميد حيث يتمهل فى اختيار ألفاظه، ويحتفي بأسجاعه،فهي تتقابل وتتوازن مهما طالت.وإن كان يجنح إلى قصر سجعاته مثل (نجعله عيداً مشرفاً ، ونتخذه موسماً ومعرفاً )،(تُزل غُلّتي برؤياك ، وتزح علتى بلقياك).

وهكذا دون أن تنتهى من عرض كل الأمثلة التي تؤكد صدق ما ذهبنا إليه وهو الإكثار من السجعات ، وكذلك غرامة الفائق باستخدام الصورو الأخيلة .

وندع السجع قليلاً ونذهب إلى ميله الواضح بلوني الجناس الناقص والتصوير حتى إن الأخير جعله يتفنن في أوصاف الطبيعة التي فتن بها حتى رأينا قاسماً كبيراً من رسائله يخرج من دائرة النثر موغلاً في الشعر مثل قوله وهو يصف مجلس أنسه :

قد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها وضعفت فبقي دماؤها ، وسامتتني أشجار كأن الحوار أعارتها أثوابها ؛ وكستها أبرادها وحضرتني رنجات ككرات من سفن ذهبت أو ثدي (٣٥).

وعلى كل فإننا نستطيع أن جمل أهم خصائص صنعته الكتابية فيما يلي :

أولاً : كان يتوخى الألفاظ ذات الحروف الضخمة كحروف التفخيم والإطباق فتكثر في كلماته حروف القاف والضاد والظاء والصاد والطاء ونحوها مما يجعل الكلام جزلاً أو رصيناً ذا جلجلة ورنين . ثم بالنظر إلى الأساليب فإننا نلمس إكثاره من الاعتراض والفواصل بين المتلازمين كالمبتدأ والخبر والصفة والموصوف وفعل الشرط وجوابه (٣٦).

ثانياً : اعتنى كل العناية بألوان البديع التى يصبغ بها قمشة أو رقعة أساليبه فوصلت إلى درجة عاليه من الزخرف والتنميق وربما تأثر بطريقة أستاذه ابن العميد.

ثالثاً : قصر سجعاته ، فإن طالت وازن بين ألفاظها وموازنات تطرد ما زاد حتى لتحيله إلى مايشبه القصر حيث يلح في تحليتها بالجناس وخصوصاً في رسائله الديوانية ؛ لأنه يريد أن ينال الحظوة السامقة من وزيره ، أما الرسائل الإخوانية فإنه لم يهتم بالسجعات القصار لأن من يسيوجه إليه الرسالة لن تجد مشقة فيما يقرأ ، ولربما كانت نوعاً من إظهار المقدرة .

رابعاً : اعتنى بالتصوير عناية خاصة حتى أنه استلهم الطبيعة بكل ظواهر فاستحال النثر نظماً على يديه حيث إنه طلب شاذها وغريبها وربما يعود هذا إلى ميله للإغراب والتأنق

**أخيراً القاضي الفاضل:**

هو أبو علي عبدالرحيم بن القاضي الفاضل الأشرف أبو المجد على بن الحسن بن الحسين اللخمي البيساني نسبة إلى بيسان التى ولا بها عام ٥٢٩ هـ وقيل بعسقلان إذ كان أبوه يتولى قضاء بيسان بفلسطين للفاطميين فنسب إليها ثم قدم إلى مصر وهو في الخامسة عشرة من عمره في أيام الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله والتحق بأحدى

مدارسها ؛ ليحفظَ القرآن الكريم ، وكثيراً من أشعار كتاب الحماسة ثم أرسل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ؛ ليتدربَ فيه على الكتابة فتتلمذَ على يد الموفق بن الخلال ، ومن قبله ابن قادوس حتى اتقن فنَ الكتابةِ .

ولما شعر أن المكانةَ التى يطمعُ فيها فى ديوان الإنشاء قد يصعبُ تحقيقها وشيكاً ؛ لكثرة منافسيه فيه فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية لعله يحقق لنفسه مايريد من الذيوع والشهرة وقد أعجب به ابن حديد فعينهُ رئيساً لديوان الجيش ثم انتقل إلى ديوان الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر من خلافة العاضد ثم استخلصه الموفقُ ابن الخلال - رئيسُ ديوان الإنشاء لنفسه . فكان يكتب بين يديه . ولما نشب خلافٌ بينَ شاورَ وضرغام ، كان يكتبُ السجلات والتقاليد والمنشورات عن العاضد بينَ يدى الموفق ، ولما ضعف بصرُ الموفق أصبحَ القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد ولما تولى صلاح الدين الوزارة وكان القاضى قد وثق الصله به فأثنى به صلاح الدين فلم يكتف له برئاسته لديوان الإنشاء بل اتخذه وزيراً ولم يتخذ قراراً إلا بعد مشورته (٣٧) .

لقد كان القاضي الفاضل لسان صلاح الدين طوال حكمه حيث كان يكتبُ عنه للخلفاء العباسين والملوك والولاه والمسجل لأحداث عصره والمبلغ عنه توقيعاته وعهوده وسجلاته إلى من تشمله إنه حكم فى مصر والحجاز والشام واليمن حيث اتخذه ساعده الأيمن فيما أراد من إصلاحات مالية وحربية حتى لم يعد في الدولة إنسان يعلوه فيَ مكانته . ولما مات السلطان صلاح الدين اعتزل القاضي السياسة بعد أن رأى اختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة وظل على اعتزاله حتى مات يوم الثلاثاء السادس من ربيع الآخر سنة ٦٩٥ هـ (٣٨) حتى قال القاضى الفاضل فيه " لاتظنوا أننى ملكت البلاد بسيادتكم إنما ملكتها بعلم القاضى الفاضل . لقد كان القاضى شاعراً وله ديو ـ شعر مطبوع كما كان كاتباً وذاعت شهرته فى الكتابة حتى عد فيها صاحب مذهب فنى نثرى وقد كان له مريدون من مصر والشام حيث كانت له رسائل ديوانية وقد تناولت شؤون الدولة الداخلية والخارجية ، وله رسائل إخوانية في الشوق والشكر والعتاب والتعزية مما يدل على موهبة فذة ، وقد خلفت وراءها ميراثاً بلاغياً طيباً امتاح قوته

التعبيرية من تجربته وما حصل عليه من فكر وثقافة ولربما أن طريقته وتفوقه في النثر حجبت شهرته بالشعر .

وعلى كل فلقد شهد مؤرخوه بأنه امتاز في النثر والشعر معاً لذا قال عنه ابن حجه الحموي (نظمه ونثره رضيعا لبان وفرسا رهان )(٣٩)

وإليك قطعة ( ٤٠ ) من السجل الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسنداً فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، مصوراً ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من دعم متحدثاً بلسان الخليفة .

" ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديثه ، لأغنتك غريزةٌ ، عزيزة ، وسجيّة سجية ، وشيمة وسيمة ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ونحائز ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن . ومآثر جِدّ غير عاثر ، ومفاخر، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها وشجاعة جَنان تضطرم نارها ، وخلالٌ جلالٌ عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كمائم نُورها تتفتّح .. وابسُط يدك فقد فوّض إليك أمير المؤمنين بسطاً وقبضاً ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعاً وخفضاً ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبتاً ودحضاً . واعقد حُبّى العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضاً . وانفذ فيما أهّلك له فقد أدّى بك نافلة من السياسة وفرْضا ، وصرّف أمور المملكة وإليك الصّرْفُ والتصريف ، وثقّفْ أودَ الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف ".

### خصائص فن الفاضل الكتابي

يمتاز الفاضل بجملة خصائص تجعله رائداً يهتدى الكتاب بمنهجه في الفن الكتابي نذكر منها :

أولاً : التحري والدقة واستخدام التورية مثال ذلك في أسناد حديثه حتى لتظن أنه يريد الحديث النبوي فلعلها تورية جعل لصلاح الدين اسناداً فيه فقصد منها التلطف والمداعبة ، كذلك استمر في استطراده لا من السند ، وإنما من المساندة.

ثانياً : قدرته على استخدام البديع وسيطرته على السجع وحسن تصريفه للألفاظ فيطوعها وتطاوعه لخدمة ألوانه البديعية المختلفة التي أعجب بها الناس ، وأجمل ماتفوق فيها الجناس لاسيما غير المتكلف وإن كان قد بذل في استخدامه من الجهد مابذل .

على كل فالجناس والسجع هما الظاهرتان الأسلوبيتان اللتان يعتمد عليهما القاضل في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقى المتتابع .

ثالثاً : أنه - فنياً - يتسم بميله الشديد للتشخيص هذا بالإضافة إلى فنيْ الكتابة والتدوين

رابعاً : اقتبس القاضي الفاضل من القرآن ، وتفنن في الاستعانه بآياته بطريقة التضمين أو الإشارة أو التلميح .

## هوامش ومصادر الفصل الثالث

١-راجـــع : العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ص ٥٢٩

٢- هو كتاب لحكيم التلميذي المتوفي عام ٣٢٠ حيث يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله في أرضه ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة وممن تكثر إضافة الكرامات إليه في هذا العصر بستان الجمال المصري.

٣- ينظر : في العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ط ٣ ص ٥٢٤ .

٤- ينظر : في المصدر نفسه ص ٥٥١ .

٥- راجع : الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف ط ١٢ ص ١٩٥ نقلاً عن البيان والتبيين ح١ ص ١٣٧ .

٦- راجع : العصر العباسي الثاني ص ٥٣٣ .

٧- راجع : المصدر نفسه ٥٥٣ .

٨- راجع : تاريخ الطبري ح ٩ ص ١٧٢

٩- راجع : المصدر نفسه ح ٩ ص ٢٤١

١٠- راجع : تاريخ آداب العربية في العصر العباسي الثاني ص ٢١٧ .

١١- انظر : العصر العباسي الثاني ص ٥٦٩ .

١٢- ينظر في : المقامة لشوقي ضيف ط ٥ ص ٧ دار المعارف ١٩٨٠ و.

وراجع : العصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ٥ ٥٣١٣

وراجع : الأدب في العصر العباسي الثاني لعلي أبو الخشب ص ٩١

وراجع : تاريخ الآداب العربية لجورج زيدان ج ٢ ص ٣١٥ .

١٣- ينظر في : لسان العرب مادة (قوم).

١٤- راجع : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (المقالة العاشرة).

١٥- راجع : ابن الخشاب (أبو محمد عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي (٤٩٢-٥٦٧ هـ) في الإعتراض على الحريري في مقاماته ضمن كتاب المقامات الأدبية للحريزي ط ٣ ص ٦ مطبعة الحلبي بمصر ١٩٥٠ م

١٦- ينظر في : مقامات بديع الزمان وشرحها للشيخ محمد عبده ص ١١ .

١٧- انظر : نشأة المقامة في الأدب العربي للدكتور حسن عباس ص ١٥ دار المعارف حيث يرى أن التوسع في معني الكلمة لايعني هبوطاً أو إرتفاعاً وكل ما هنالك أن الكلمة أصبحت تدل دلالة اصطلاحية خاصة على نوع من النشاط الأدبي .

وعبدالملك مرتاض في : فن المقامات في الأدب العربي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص ٥٦ - سنة ١٩٨م

١٨- راجع : رحلة في التراث العربي ط ١ دار المعارف ص ٣١٧ .

١٩- راجع : مقامات بديع الهمذاني وشرحها للأمام محمد عبده مؤسسة أخبار اليوم دار الكتب ١٩٨٨ .
وراجع : أصول المقامات للدكتور إبراهيم السعافين ص ١١٩ بيروت ١٩٨٩ م.
٢٠- راجع : مقامات بديع الهمذاني وشرحها للأمام محمد عبده مؤسسة أخبار اليوم دار الكتب ١٩٨٨م
٢١- راجع : المقامة لشوقي ضيف ط ٥ ص ٥٧ أخبار اليوم دار الكتب ١٩٨٨م.
٢٢- راجع : المصدر نفسه ص ٥٧
٢٣- فى الموازنة بين مقامات الهمذاني والحريري تم الرجوع إلى الدراسات التالية
- أصول المقامات : للدكتور إبراهيم السعافين ط١ دار المناهل بيروت .
- التقليدية والرامية فى مقامات الحريري : للدكتور جابر قميحة دار الفكر ١٩٨٨
- نشأة المقامات في الأدب العربي : لحسن عباس ١٩٨٧ دار المعارف .
- الموقف من القص : فى تراثنا النقدي للدكتوره ألفت كمال الروبي ط١ ١٩٩١ مركز البحوث العربية للدرسات والتوثيق والنشر بالقاهرة .
٢٤- هو أبو العنبس محمد بن إسحاق إبراهيم : صاحب الكتب في الهزل مات سنة خمس وسبعين ومائتين وهو منسوب إلى الصيمرة وهي بلدة من نواحى خوزستان وهى المسماة بمهرجان قذمة وإليها ينسب أبو تمام إبراهيم ابن أحمد بن الحسين الصميري .
٢٥- راجع : مقامات البديع وشرحها ص ٦٤ .
٢٦- انظر : المصدر نفسه ص ٦٦ .
٢٧- راجع : تجارب الأمم حيث عرض صاحبه فصلاً كاملاً عن ابن العميد.
٢٨-راجع : تاريخ ابن الأثير ج ٨ ط ١٢ ص ٤٤٦ .
٢٩- انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي ط ١٢ ص ٢٠٩ دار المعارف .
٣٠-انظر : عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران ) لشوقي ضيف ص ٦٥٨ سنة ١٩٨٠ وكلمة نور جمع نوار ومعناها شاردة .
٣١- انظر : اليتيمة ج ٣ ص ١٤٥ آنف : أشد ، غلول : خيانة الاصطلام : الاستئصال ، الفيئة : الرجوع
٣٢-انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ح ١ ص ٧٥ .
٣٣-انظر : رسائل الصاحب بن عباد تقديم عبدالوهاب عزام وشوقي ضيف ط ١ المقدمة دار الفكر العربي سنة ١٣٦٦ هـ .
٣٤- انظر : اليتيمة ج ٣ ص ٢٢٨
٣٥-انظر : رسائل الصاحب بن عباد ص ١٣
٣٦-انظر : اليتيمة ج ٣ ص ٢٢٣
٣٧- انظر : ديوان القاضي الفاضل تحقيق د . أحمد أحمد بدوي ط ١ المقدمة وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار المعرفة .
٣٨- انظر : رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل اختيار موفق الدين الديباجي تحقيق محمد نغش ط ٢ ص ١٣ القاهرة ١٩٨٤

٣٩- انظــــر : عصر الدول والإمارات مصر ط ٢ ص ٤١٠ - ٤١٥ دار المعارف ١٩٩١م
٤٠-انظــــر : المصدر نفسه ص ٤١٣
سجية الأولى : خليقة أما سجية الثانية فمعناها دائمة . وسيمة : جميلة
نحائز : جمع نحيزة ومعناها طبيعة آسن : متغير الطعم
قطارها : قطرها ومطرها كمائم : جمع كميمة وهي غطاء النور والزهر
حبي : جمع حبوه وهو الثوب يديره الجالس حول ساقيه وظهره للاستناد عليه أود : إعوجاج

# محتوى الكتاب